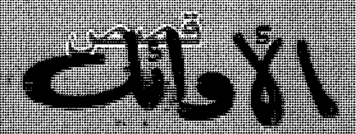
# قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي




قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

# قطرات من ذاكرة الفكر

قصص قصيرة

قطرات من ذاكرة الفكر
عبد أحمد عبد الكريم السعدي
====================



الطبعة الأولى/ أيار—٢٠٠٠م

رقم الموافقة:٤٧٤٣٢/ بتاريخ:٢٠٠٠/٣/٣٠

الإشراف الفني والإخراج: سعيد اسحاق

دار الشموس للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق: ٦٦١٥٩٤٨- ٥٤٤٤٤٢٣

ص.ب: ٣٦٦١٣

# الإهداء

كانت قطرات قليلة ثم انهمرت..

سحبت من الذاكرة أحداثاً وجسدت مواقف

وألهبت إحساساً..

ربما تسعد لحظة وربما تحْزِنُ عُمْرَا

لكنها قطرات من مخزون الذاكرة

عزيزة بكل ما فيها حبيبة بكل ما تحمل

وإلى حقبة العمر تلك

وإلى ندى التي سعت لتجسيدها واقعاً حياً

ومجموعة قصصية أقدم إهدائي

# تَيَّارَاتٌ مِنْ زَمَنٍ غَابِرٍ

رَتَّبَتْ الأوراقَ وأسبلتْ عينيها منهية عمـــل ذلـك اليوم بعبارتها المشهورة والمألوفة لزوجها عادل: (الحمـد لله ها قد أنجزتُ ما كان عليَّ من عمل الآن ولم يعد لـــي غير أن أخلد للنوم إن شاء الله) كانت هنية سيدة تجـاوزت الأربعين من عمرها بقليل...

امرأةٌ ناضجةٌ مثقفةٌ عفيةٌ وهي سيدة لـــها مكانتـــها وحضورها في أي مجلس ومجتمع نسائي وذكوري...

شخصيتها قوية مهيبة الطلعة ممتلئة القوام جميلـــة إلى حد الملاحة صارمة في قراراتها ما تحدثت إلا كـانت سباقة في هذا المجال وإلمامها بمعارف كثيرة واهتمامـــها بعلم الأنساب والعلاقات الاجتماعيـــة وصـــلات القربـــى منحها سعة الاطلاع وحضـــور الذاكـــرة إضافـــة إلـــى شخصيتها المسيطرة...

عملت مدرسة لسنوات طويلةٍ ولا زالت تقوم بذلك حتى الآن حُباً بالمهنة وشغفاً بتقديم المعرفة لتلميذات أحوج إليها من أي مُدَرِّسَةٍ أخرى دخلت سلك التدريس عن غير رغبةٍ واهتمام وقد تذكرت كلمتها وهي تشرع في الاستلقاء مخاطبة زوجها: (مدرسات هذا الزمان هَمُهُنَّ الأحاديث السطحية والعبث وعدم الالتزام بمواعيد الدرس والتأخر عن الوظيفة بما لا يفيد) إلى غير ذلك ثم أتبعت قولها: (مدرسات آخر زمان دخلن التعليم لأنه هذا هو الموجود وليس بالإمكان أكثر مما كان): فعقب زوجها عادل بقوله: (يعني هذا الحاضر) وعاجلته: (مدرسات لا مظهر ولا مخبر كذلك يا عزيزي).

وأنهت قولها وقد اطمأنت لما فعلته راغبة أن تغطَّ في سباتٍ عميق. ولكن زوجها أبا مروان الموظف الملتزم بكل دقائق حياته بنظامه الخاص وهو في دائرة التحقيقات أحب أن يسامرها في تلك الساعة محدثاً إياها عن أمور عائلية تحتاج للمناقشةِ وبعض اليقظة حين قال لها: (لا تنامي يا هنية... لا زال الوقت مبكراً ولم يحن منتصف الليل بعد)، فقالت هنية: (دعني بربك يا عادل

لدي في الصباح أعمال كثيرة لا بد من إنجازها وخاصــة "الصحوة بكير" صلاة الفجر وتحضير الإفطــار وبعدهــا كالعادة ركوب السيارة معك للوصول إلى الدوام والعمــل قبل نصف ساعة تقريباً ولا تنــس توزيــع الأولاد قبــل نصف ساعة أخرى على مدارسهم الثانوية والمتوســـطة والابتدائية.. فهي ســت مــدارس.. فنــم يــا عزيــزي واعذرني..) وبدأت رحلتها مع النوم دون تردد..

هَزَّ أبو مروان رأسه متذمراً وقال: ما في فــايدة.. الطبع غلب التطبع.. لو كان في مجلس نسائي في هــذه الساعة عندها لتسيدته وطلبت مني مساعدتها في تحضــير بعض الأمور المترتبة لهذه الجلسة الشاعرية والأحــاديث الطرية والموضة والفساتين ولو طال بــها الوقــت بعــد الثانية صباحاً ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله ومثــل مــا قالت هنية الزوجة الرضية...: عندي صباحاً ست مدارس واحدة لها واثنتان لحليمة وســلوى ثــم عــزت وأمــير ومروان..أحسن شيء النوم وتوكلنا على الله..

ساد الصمت جَوّ المنزل وسبقهما جميع الأولاد بعد كدٍّ الدراسة وُجهد الدرس وأداء الواجبات وتناول العشاء..

لكن ابنه مروان من زوجته الأولى لازال يتململ في فراشه كأنه في حلم وقد بلغ التاسعة عشرة وله شقيقته من أمه هي حليمة التي تصغره بعام ونيّف تقريباً... فتاة ناضجة تمتلك الحسن والبهاء والثقافة والتفوق الدراسي، فارعة الطول منسدلة الشعر كستنائية الأهداب في عينيها ابتسامة الصبّا وضوء يشع ببهجة الحياة تُلْهِبُكَ رقةً وتسحركَ عذوبةً.. صحت من نومها لتشرب كوباً من ماءٍ واتجهت نحو المطبخ وبعد أن أفرغت محتوى كأسها في فمها التي تناولته من الثلاجة ثم عرجت على كل أخوتها واحداً واحداً تطمئن عليهم كأمهم الحنون وتتأكد من راحة كلٍ منهم ولم تَنْسَ أخاها الأكبر فقد نظرت إليه من الباب فوجدته مستغرقاً في نومه.. فزايلها القلق وتملكتها الراحة لحرصها الشديد على أحوالهم وصحتهم دائماً ومستقبلهم وحتى نومهم فقد عهدت هنية لها بهذه المهمة ولكنها بقيت متيقظة يشغل بالها هم الدراسة والامتحانات والاستعداد والتحضير مقدماً لشهادة الثانوية العامة عما قريب..

إضافة إلى حبها وشـــغفها بالأزيـــاء والموضـــة والمكياج، فهي بارعة بكل ذلك إلا أنـــها تفكـــر بأخيـــها مروان أكثر من كل هذا فهو قد جاء من دمشـــق ومـــن جامعته التي يدرس فيها بقسم علم الاجتماع إلى الخليـــج عائداً في إجازته الفصلية ليقضيها عندهم وليجدد إقامتـــه في المملكة ولكن الظرف لم يُتِحْ لـــه العـــودة بالســـرعة الممكنة لكليته في نفس الموعد لضرورة تجديد جوازه ثـــم إضافة إقامته ووضع التأشيرات التي لا بد منـــها وهـــي وحدها مشكلة المشاكل لما فيها من تعقيدات وإجـــراءاتٍ.. وكثرةُ الاتصالاتِ والهواتفِ تـــأزم الانفعـــالاتِ ويـــزداد الحرج لضيق الوقت وما أصعبها.. خاصـــة إجـــراءات الحدود والموافقات التي تحتاج إلى صبر أيوب للازدحـــام من ناحيةٍ والتعقيدات من ناحية أخرى...

ولا شك أن حديث أخيها لها عن رغبته في تغيـــير دراسته إلى كلية الآداب وعلم النفس سيفقده سنة من عمره بين الكليتين وإصراره على هذا الأمر وجزمه فيه لا يقبل المناقشة وقد حاولت معه فلم تفلح وأصر علـــى موقفـــه وقناعته واسترسلت حليمة بشرودها بعد انقضـــاء أشـــهر

الدراسة والامتحانات وخلصت إلى عدم الرغبة في السفر لو استطاعت ذلك لما فيه من متاعب ومشاكل فكم توقفت أرتال السيارات في كل نقطة وهم بداخل سيارة والدهـــا أثناء اجتياز الحدود وعدم السماح بالنزول أو التحـــرك أو ترك الحافلات لفترات طويلة وفي كل نقطـــة لضـــرورة الإجراءات خاصة إذا ما تقدمت حافلاتٌ أرتال الســيارات ونزل الكم الهائل من الركاب والأمتعةِ، فيا لها من ســاعة فالانتظار طويل وطويل جداً صيفاً وشتاءً... ذلك وقـــت نزولهم وقريباً يحين موعد إجازاتهم وتبدأ المشكلة وضيق الصدر فالصيف محرق لاهب والطوابير كثيرة وأرتـــال مسمرة لا تتقدم قيد أنملة في ذلك الزّحام الهائل والصخب المتعالي والتذمر الذي يتناثر من أفواه الواقفيــــن لبطـــئ الإجراءات وتقاعس المشتغلين وقلة المكيفـــات أو ربمـــا ندرتها وأحياناً عدم وجودها أصلاً في صالات الجــوازات مما يجعل المكان أشبه بحمام الساونا... فالشمس المحرقـة تبخر كل الأجواء فلا يرى الناظر أمامه إلا ضباباً كثيفاً... تلك هي التي يسمونها في دول الخليج الرطوبـــة، حيـــث يلتصق الثوب على الجسم ويتصبب العرق مـــن الجبيـــن

بقطرات مالحة تحرق الوجه عند نزولها وجريانها علـــى صفحته..

والحالة هذه كأنه يوم الحشر وساعة النفير... كـلٌّ يحاول إنجاز معاملاته بما استطاع مـن سـرعة ليتـابع إجراءات مثلها في حدودٍ أخرى وهنا تنقسم الأسرة إلـى مجموعات وفرق يأخذ كل واحد مجالاً واتجاهاً. فالواقفون في الطوابير أمم كثيرة والذين يجرون هنا وهنـاك فـي سرعة جنونية يربون على الأعداد الواقفة وَجُلَّـهُم بـلا تركيز وعدم انتباه اللهم الذهاب والعودة والسعي ما بيـن الأمكنة (مثل أم العروس فاضي مشغول) شـيء عـادي ومألوف مـن كـثرة المعـاملات والأوراق والطلبـات والوقفات.

والأدهى من هذا كله الوصـول لأمكنـة التفتيـش فهناك الخطب الأكبر فالصراع على أشده والازدحام يبلـغ ذروته في اندفاع وصياح بَالِغَيْنِ (فترى الناس سـكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) صدق الله العظيم

فهذه الآياتُ من حكمتها ومغزاها تتطابق وتتطبــق على معظم المتعاقدين في رحلة عودتهم إلى أعمالهم بعــد صراع مرير حتى ينطلق موكب السيارات مخترقاً الحدود النهائية والمسافاتِ وكمـــا قــالوا (الشــاطر بشـــطارته) (والماهر يلحق)..

عندها صحت حليمة من ذهولها واســتغراقها فـــي رحلة السفر المعتاد التي أخذتها من لحظات اليقظة بعيــداً في شرود فوضوي أثاره ظرف أخيها الذي لا بد له مـــن العودة لجامعته وكليته وتعقيدات السفر ولذلك كـــان هــذا الهم اليومي الذي يجول في أنحاء المنزل وبيـــن أفــراد الأسرة كالدوامة التي تبتلع كل من اقترب منها مع بدء كل إجازة وارتحال.

عانت حليمة من ذلك فازدادت متاعبها فـــي هــذه الظروف المحرجة خاصة حبها لأخيها الذي يسيطر عليها ويَشُدُّ تفكيرها ويهمها أمره ومستقبله وقـــد حــالت دون عودته التعقيدات المملة مما أدى إلى عزوفه عن الســـفر مبدئياً حالما تنتهي تلك الإجراءات وقد انتسب ثانية لمعهد

الحاسوب (الكمبيوتر) بعدما يئس من العودة المبكرة ففيه على الأقل الاستزادة بالمعلومات ولَمِاَ استجدَّ وتطويراً لثقافته في هذا الاتجاه وبينه وبين الحاسوب حب وعناق فإن تأخر عن جامعته وكليته فلا أقل من ربط نفسه بمعهد الكمبيوتر ليشغل وقته ويكتسب علماً ومهارة معاً إلى حين. وكم دخل دورات قبلاً وهو في مراحل دراسته المتوسطة والثانوية. وقد اقتنع بشعار زميل مصري الجنسية بما كان يقول (هذا الله وهذه حكمته).

فدول الخليج لا تسمح للطلاب الأجانب الناجحين بالثانوية العامة الدخول لجامعاتها ولا بد من البحث عن مقاعد لأي من هؤلاء في دولهم أو دول أخرى عربية أو غربية مما يشتت الشمل ويبعثره في أصقاع كثيرة من الدول.

فالمشكلة قائمة ولا بد لها من حل... إمَّا استمرار الاغتراب أو العودة للوطن لجمع شمل الأسرة المبعثرة ما بين الدراسة والارتحال والحقيقة أن هذا الأمر قد شغل ذهن حليمة أكثر والآن بالذَّات لأنها على أبواب

الامتحانات وولوجها باب الجامعة عما قريب إن شـــاء الله في الإجازة الصيفية أسوةً بأخيها مروان حتى تكون معـــه فتحمل عنه عبء مهام المنزل وتجد فيه سنداً لها راعيـــاً أميناً وتلك كانت بعض مشاكلها التي لا تنفك تقتحم عليـــها عزلتها وتتسلُ إلى نومها في أحلامها الحياتية متتابعة فـــي معظم لياليها.

لكن الهم الأكبر ما لاحظته من أمها أي زوجة أبيها وموقفها الذي ليس له حل أبداً... فقد عانت الكثـــير مـــن إرهاصات الضغط والقسوة واللهجة الآمرة (على فـــاضي على مليان) مما عزز لديها شـــعور الوحـــدة والانـــزواء والتصدي أحياناً لردِّ الاعتبار خاصة تلك المـــرات التـــي تقدم فيها أكثر من خاطب لها في العديد مـــن المناســـبات مفسدة هنية أي اتفاقٍ معرقلة كل الخطوات ســـلفاً وبـــلا إنذار..

هكذا.. شَغَفٌ بالعناد ورغبة في الاضطهاد وعـــدم ممارسة الجميع لهذا الحق إلا عن طريقها هي وبأســـلوبها المتجبر وهيمنتها المتسلطة.

وإن كانت حليمة بعيدة كل البعد عن التفكير في الخطبة والزواج لكنها أحوال... تلفت النظر وتثير الشجون والتساؤلات مما ترى.

ولعل هذا الأمر فيه ما فيه من الخطورة المستقبلية نحو التطور البعيد جداً والغريب جداً أيضاً.

والحقيقة أن هنية هي زوجة أبيها وأُمُّها بالتربية والرعاية، وما أشد الاضطهاد وأقسى العناد وأصعب حياة المداراةِ وأَمَرَّ شجونها وأبعدها عن حياة الدَّعَةِ والرتابة والسعادة والاستقرار.

إن حليمة لا تضمر إلا الخير لكل أهلها ولم يَتَسَنَّ لتفكيرها لحظة واحدة أن تُبْغِضَ أيّاً من عائلتها وأهلها فلماذا هذه القسوة وذلك الاضطهاد؟!.

قالت ذلك حليمة في شيء من الاستغراب، ولكن الحقيقة قدمت لها الرَّدَّ السريع على سؤالها حين تذكرت أن زوجة أبيها هنية عانت من نفس المشكلة ومن تلك الظروف التي تعيشها حليمة معها فقد كانت زوجة والد هنية امرأة متسلطة شرسة الطبع فذاقت هنية منها مُرَّ

المعاناة مما عمق في داخلها هذا العداء المزمن والــروح العدائية والعدوانية لأبناء زوجها مثــل حليمــة وأخيــها مروان وكالت هنية لزوجها ولأبنائه بنفس المكيال التـــي شربت منه يوم كانت في بيت أبيها وتصرف هنيــة مــع زوجها عادل لا يتفق مـــع الأريحيــة المطلقــة وحســن المعاملة.

أُذِّن للفجر وصحا أبو مروان وتبعته هنية للوضــوء والصلاة فشاهدا حليمة وهـــي فـــي شــرودها المعـــهود فزمجرت هنية صاعقة غاضبة في وجه حليمـــة: (مـــاذا تفعلين حتى الآن يا حليمة؟!) ثم ما الذي أيقظــــك لـــهذه الساعة؟. فانتبهت الصبية من شرودها مرتبكـــــة فزعـــة وقالت لا شيء. لا شيء الآن صحوت... لا عليك يا أماه واغرورقت عيناها بالدموع فتقـــاطرت بحرقـــة وأســـى متأوهة حزينة.

فتقدم منها والدها مهدئاً روعها حانياً عليها مُرْبتـــاً على كتفها وضمها إلى صدره مواسياً وهو يقول أحســبك

تغضبين منها... لا تلقي بالاً لما تقول هي، وأنت تعرفيـن مدى حبي وإعزازي لك يا حبيبة...

لكن الأسى لم يفارق جوانحها وهي تتمتم يا الله...

(الناس ربما تعيش الاغتراب مرة واحـــدة أحيانـــاً ولكنني أعيشه ثلاثاً. اللجوء، وتَشَتُّتُ الشمل والبعـــاد...، وغربة البيت الحاني وحضن الأم).

# لا تفعل أرجوك

شحذ سكينه واندفع غاضباً حانقاً كثورٍ طعن فـــي ظهره عدة طعنات من مصارعيه فازداد هيجاناً وعنفـــاً وبدا استياؤه في ملامحه البارزة وتقاسيم وجهـــه التـــي رسمتْ على محياه أخاديدَ متوازية مـــن غـــير تناســـق وانتظامٍ وكان لابد أن يغرز سكينه في ابنته حسنية التـــي أحبت ابن الجيران نعيم الناعم المتهتك رقيق العود ليـــن الحركات طريّ الكلمات يتثنى في مشيته كفتاةٍ تعـــرض مفاتنها لمن يتقدم.. وهما في عمر المراهقـــةِ مـــا بيـــن السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر.

وكان كل من حسنية ونعيم قد تأخرا دراسياً ورسـبا في الشهادة المتوسطة لأكثر من سنةٍ وعلاقاتهما الصبيانية واللقاءات في الحدائق العامة والمحادثات من على شرفات المنازل كثيرة ولكن والدها جابر ما كان ليلحظ مثل هـــذه الأمور في فترات النهار مطلقاً فعمله كسائق تاكسي كـــان يستغرق منه يومه كله وجزءاً من ليله ولا يعود إلا منهكاً

مكدوداً (ومن المحتمل أن يأكل لقمة بعد أن يغسل يديه ويا ألله على النوم) كما يقولون ليستقبل يوماً جديداً بهمةٍ أخرى وهكذا تبدأ عجلة النهار دورتها ثانية في رتابة معروفة لا تغيير فيها غير ملامح الوجوه والأشخاص الجديدة التي تركب معه في مرات أخرى ثانية وهكذا تستمر حلقة عمره في هذا السياق المتواصل كعجلةٍ رُكِّبَتْ على آلة معمل وليس لها غير الدوران والإنتاج... وكان لا بد لوالد حسنية جابر أن يدأب كثيراً جداً لعائلته الكبيرة المؤلفة من أحد عشر فرداً خاصةً بعد أن امتلك سيارة الأجرة التي يركبها ويعمل عليها مغرماً بها عاشقاً لها فحياته المديدة مع أسرته ما كانت بفقره المدقع وأسرته الكبيرة لتسمح له أن يقتني سيارة باسمه شخصياً.. وقد كان يعمل سائقاً عند أصحاب السيارات وهذا استغرق معظم سنواته العريضة وفي منزله المتواضع مع العديد من العائلات في منطقة البحصة القديمة قبل التحديث حيث كل عائلة تسكن غرفة واحدة من عنبر يتسع لعشرين عائلة معاً أو يزيد. وجميعهم يشتركون في دورات مياه واحدةٍ وكذلك كان المطبخ المهترئ المتعفن الذي نَسِيَهُ

الزمن تتسدل على جدرانه خيطان العشبشون الأســود.. وتتدلى من سقفه نُسُجُ العنكبوت المُعَمِّرِ في أشكال مقـززةٍ والحشرات تسرح في أرض المطبخ كيفمــا شــاءت دون رقيب أو حسيب..وجابر أبو أدهم.

وهاهو قد سكن الآن شقةً وامتطى ســيارة يملكــها وتحسن حاله ولكن حال الأسرة الكبيرة الذي لا يرحــم لا زال يلاحقه ليل نهار بالطلبات التي تَرِفُ عليه كـــالمطر المنهمر المهطال.. فمن أين له أكثر وقد فعل فـــوق مــا يستطيع وهاهو يعاني القلق منــهك مكـدود لا يكـل ولا يمل.. ولولا أخوه فريد الذي مات منذ سنوات وهو يعاني الذبحة الصدرية ولم يكن له أبناء ذكــور غــير زوجتــه وخمس بنات مع أمهم وأموالٍ كثيرة بـــالملايين... لمــا استطاع جابر شراء شقة والظهور فوق السطح بعيداً عــن غرفة العنبر فقد تقاسم جابر مع أخوته الســتة وأخواتــه البنات الثلاث وبنات المرحوم وزوجته الميراث فكــان أن تحصل على سكن في منطقة ركن الدين الأفضل والأكـثر تنظيماً وراحة من غرفته المظلمة التي عاش بها ســنواتٍ

طويلةٍ... وقد استأجر أخوُه فريد له هذه الشقة قبل وفاته بأشهر لشعوره بحالة أخيه المزرية فانتشله من مكانه المتردي وأسرته والآن وقد دامت معاملات حصر الإرث عدة سنوات كان لا بد أن يشتري الشقة التي يقطنها بربع الثمن فهو المستأجر الساكن ولن يخليها إلا بحالتين... إما أن يأخذ (خلو رجل) أو أن يشتريها بثمن زهيد بخسٍ دون قيمتها الحقيقية.

وصاحب الشقة لا يستطيع إخلاءه لأنه يتسلم الأجرة كاملة من المصرف كل أول شهر وذلك هو المبلغ الذي أودعه فريد الأخ المتوفى قبل ارتحاله إلى عالم الآخرة ليكون أجراً مدفوعاً لجابر وأسرته في شقتهم المؤجرة باسمهم..

فما كان من صاحب الشقة إلا أن استخار ربه وأخذ ما اتُّفِقَ عليه وصار جابر من أصحاب الأملاك في شقةٍ بالدور الرابع مضافاً لها السطح الذي استأنس فيه جابر للجلوس به ساعة الصفاء من يوم الجمعة مخططاً فوقه

لبناء شقة أخرى عليه لابنهِ الأكبر أدهم فيما بعد عندمـــا يزوجه بابنة الحلال إن شاء الله.

ولم تكن زوجة جابر أم العيال رتيبة لترضى مـن زوجها جابر قسمته تلك وهي امتلاك الشـــقة وتسـجيلها باسمه وأن يتصرف بنصيبه بالميراث دون أن يكون لـها حصة من نصيب الأسد وهي الزوجة التي تحب أن تمتلك كغيرها شيئاً من متع الحياة فاشترطت عليـه أن يقتطـع مبلغاً لها لشراء شيء من الحلي والذهب ما يتناسب مـع شخصيتها وحيثياتها المجتمعية واللقاءات النسائية في قابل الأيام...فانصاع أبو أدهم مضطراً مرغماً لأمرها محققـاً لها ما طلبت دون تردد فهو الذي يعشقها ويهيم بها فليفنى الجميعُ أبناءً وبناتاً وتكون هي راضيةً أولاً وأخيراً وقـد خُطِبَتْ لابن عمها (عَزّام) قديماً عندما انخرط في سـلك البوليس في الجيش البريطاني من قِبَلِ الوالديـنِ وقـراءة الفاتحة وهو عن ذلك بعيدٌ بعد الشمس عن الأرض مما لم يفسح مجالاً لزواجهما فحظي بها جابر وأصبحت رتيبـة زوجته فيما بعد ثم وهل تحقق هذا الحلم...؟ ومـا كـان

ليصدق جابر ذلك لولا أن صارت حقيقة يتلمسها كل ليلة قبل النوم منذ عشرات السنين وهو يفعل ذلك متحققاً من وجودها لديه ومعه وكم لاحظ أبناؤه من حركاته تلك التي يداعب فيها زوجته ما نَمَّى غرائزهم المكبوتة وتفاعلت مع الأيام متجسدةً في تصرفاتهم المستقبلية. فجابر كان شاباً أشقر جميلاً يتميز عن أخوته بلونه المتوهج فهو الوحيد الذي يتسم بما أنعم الله عليه دون أخوته السُّمْرِ شُبَّاناً وصبايا..

تعلقت به ممرضة بريطانية في إحدى المستشفيات التي تردد عليها وأصبحت قصته معلنةً بين الجميع من الأهل والمعارف ولكنه لم يأبه بذلك حتى كان أن تزوج من رتيبة بعد سنوات... (حُبٌّ مشبوبٌ بغرامٍ عاصفٍ) ولولا أن رتيبة لها من الحسن والجمال والدلال والغنج والأنوثة المفرطة والطول الذي يماثل طوله والإطلالة المشتهاة وقوة الشخصية ما غلب عليه النسيان واكتفى برتيبة زوجة وحبيبة... وهاهو الآن جابر يمتلك زوجة

وبيتاً وسيارةً ، ومن الناس من تهبط عليهم الثروة فجـــأة ويتغير حالهم دون سابق إنذار (وسبحان العاطي)

فقد تحصل على ثمن الشقة من ميراث أخيه فريـــد المتوفى وامتلك سيارة أجرة عن طريق أخيه الثاني نـزار (فمصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ) كان نزار رجـــل أعمــال معروفاً انطلق بسرعة البرق نحو الثروة محققـــاً نجاحــاً باهراً حين أسعفته الظروف وخدمته الأيام والحظوظ وكما قيل عنه (حظه بين رجليه مثل الدجاج)، فقد اشترى نزار لأبي أدهم تلك السيارة التي يعتليها الآن متباهياً هانئاً بــها وبامتلاكها، وجابر ينظر إلى السيارة ولا يصدق نفســـه، وهاهو يتأملها ملياً وكثيراً ما وقف أمامها ليمر بيديه فوق حديدها مباركاً لنفسه هدية أخيه الغالية، يجهد بتنظيفـــها، والعناية بها ويفنى طوال نهاره بالعمل عليها حتى يفـــي بطلبات الزوجة والأولاد جميعاً، والمسؤولياتُ الحياتيـة لا ترحم ولا تنتهي أبداً.

وقد عَزَّ عليه أن يمتلك البيت والســيارة فقــط ولا يكون لديه المال الكافي حتى ينهل من متع الحياة ويستمتع

بما لذ وطاب فهو جشـــع لا يقنـــع بـــالقليل ولا بـــالكثير وصحيح أن المسؤوليات كثيرة أيضاً متشعبة وليس لـــــها آخر ولكنه ما ذكر ربه بالحمد على ما أنعم عليه يومـــــاً، فهو جحود متلاف ينظر إلى أخيه رجل الأعمـــال بعيـــن الحسد والبغضاء لوفرة ما لديه وقلة ذات يده هو.... ومع أن نزار أخاه الأصغر لا يترك فرصة تحين حتى يستغلها ليقدم لجابر وأسرته ما تجود به نفسه عن طيـــب خـــاطر لكن أبا أدهم لا يقنعه الفتات فهو ينظر إلى أن يكـون ذات يوم من أصحاب الملايين وكم غـــالى بحديثـــه المتبجـــح وكلماته السوقية بالسِّبَابِ المفرط لكل أهله خاصة لأخيـــه نزار الذي لم يغدق عليه كل ماله ليرضى عنه. لكن جابر لديه ثروة كبيرة هي بناته التي لا تعادلها ثروة فلديه منهن ست بنات... كل واحدةٍ هي بدر يتلألأ وقد شبت الفتيـــات عن الطوق وظهرن بأجمل صورة، حوريات يتجلين فـــي خدرهن ووالدهن وأمهن همـــــهما الوحيـد أن يـتزوجن بالشخصيات المرموقة كالمهندس والمـــدرس والطبيـــب وأصحاب الثروات حتى يتفاخرا في المستقبل بالشـــهادات العالية والشخصيات المميزة ويجني كل منهما بعد ذلـــك

عن طريقهن ما يتمنى بعد هذا الصبر القاتل والحياة المعذبة فتكون الحظوة والثروة آنذاك.

ولكن الأحلام لا تأتي دائماً كلها سعيدة فقد خُطِبَتْ ثلاث بنات لأبناء أُختِ جابر كلهم مهندسون إلا البنت الرابعة الكبرى السمراء فقد أحبت ابن الجيران واتفقا على الزواج ولكنه موظف بمستوى الثانوية العامة مما لا يتيح له فرصة الغنى وامتلاك الثروات..

فقد عَزَّ على جابر أن تكون ابنته الكبيرة سمراء اللون كأفراد أسرته الأخت والأخ وأن يكون حظها من الجمال أقل من مثيلاتها. وهذا الأمر لا يُيَسِّرُ له ما يتمنى فيما بعد، لقد عَذَّبَهُ هذا المصير على أنه قال: (هي سمراء وخاطبها بسيط وهذا بذاك قِدرةٌ ولاقتْ غَطاها) وكم جنى من الويلات والمشاكل جابر من جراء رحلة الحب تلك بين الاثنين ما أتعبه فالحب لا يمنح المال ولا يجني منه إلا الوبال. هكذا تراءت الأمور بعيني جابر دائماً وكانت فلسفته في الحياة (القرش أولاً وليأتِ بعده الطوفان) وربما كانت هذه المقولة التي يتخذها شعاره الحياتي مرجعها

لعذاباته التي عاشها وظروفه ومعاناته مع أسرته ثم لقلة ذات اليد ثانياً... وجشع زوجته رتيبة وحبها لذاتها وهيمنتها وتعلقها بالمظاهر المزيفة الخداعة، فهي وقد بلغت من العمر ما فوق الخمسين لا زالت المرأة المتصابية التي لا هم لها غير الاستعراض والمكياج وزيارة الصالونات مؤخراً بعد أن طفت على السطح وأخذت من الفرص بنصيب وحتى لو بقي زوجها الحراث الكادح تحت نيرها الليلي وشقائه النهاري المتواصل ثالثاً. لكن الحقيقة أن الكثيرين من البشر ممن يعانون ويتألمون ويجاهدون في حياتهم ما يغنيهم عن مثل حكمة جابر وجبروت رتيبة ويعوضهم بالقناعة والرضى أملاً بيوم أفضل وحياة أجمل حين يقولون (الشرف والكرامة أولاً ثم المال والغنى ثانياً)...

وهاهو جابر قد لمح ابنته حسنية الفتاة اللعوب العنيدة الشرسة التي لا تستجيب لأمر ولا تفلح في شيء. رسبت في الشهادة المتوسطة عدة مرات وهاهي الآن تعبر من أمامه على الرصيف الآخر بصحبة ذلك الغلام

المخنث (نعيم الناعم) كما يسميه هو... كان ذلك عندمـــا تجاوز جابر بسيارته إشارة المرور الخضـــراء بعـد أن أضاءت له وهو يصطحب العديد مـــن الركـــاب فنادهـا بصوته الأجش الخشن (يا حسنية...يا حسنية) فلم يفلـــح نداؤه ولم تستجب لصوته الجهوري رغم أنـــها نظـرت بطرف عينها ناحيته وقد عرفته وتأكدت منه حقـــاً إنـــه والدها فأسرعت الخطى مختفية عن الأنظار فـــي زحـام المارةِ ولم يعد بإمكانه تركُ السيارة والركـــاب والجــري وراءها لِيتْبعَهَا بصاعقة تقضي عليها فما كان منه إلا كظم غيظه إلى حين وأخمد غضبه الذي تفـــاعل فـــي جميـع جسمه وكيانه من تصرفاتها وعدم انتباهها وتجاهلها له فقد شعر بما لا يقبل الشك بأنها سمعت صيحاته ولم تســتجب فاضطر لإنهاء سفرته تلك بركابه إلى محطتهم الأخـــيرة وقفل عائداً منفعلاً يثُور ويزبد حتى دخل بيته وتوجه مـن فوره نحو المطبخ ممسكاً سكيناً كبيرةً ليحُزَّ بها رأس ابنته الملعونة بعد أن شحذها بسكينٍ آخر وهو يصيـــح (أيـن حسنية؟!..أين حسنية).

وتصدرت زوجته رتيبة ساحة الصالون وهي تقول بخبثٍ وبصوتها المُغنَّجِ، ما الذي عاد بـــك مبكـــراً يـــا حبيبي؟! هذا اليوم... لاشك أنك تشتاقُ إليّ).

ثار أكثر أبو أدهم وعلا صوته وهو يلوح بيده التي تحمل السكينة الكبيرة مردداً: (أين حسنية يا مَرَة؟)...( لقد عَفَّرَتْ رأسي بالتراب وداست كرامتي وقد شاهدتها تمشي مع ذلك الغلام العاهر المخنث نعيم الناعم) وردَّدَ ثانية.... أين هي؟!.

حضنته رتيبة زوجته بيديها وتلقفته بصدرها الدافئ حتى تنهي الكارثة وهي تعلـــم أن ابنتـــها فـــي الغرفـــة المجاورة وقد أقفلت عليها الباب حتى ترى في ذلك أمـــراً وتحل المشكلة... لكن أبا أدهم وجد أن الفرصة أصبحـــت مواتية وحان القطاف العاجل. فها هي أمامه وقـــد دقـــت ساعتها وحسابها فلا بد من ذلك واندفع نحوهـــا بغضبـــه العارم مبعداً زوجته رتيبة عن طريقه وقد تشـــبثت بـــه فانغرست سكينه في صدرها ووقعت أرضاً تسبح بدمائـــها الغزيرة.

فذهل جابر من هذا المشهد ولَماَ فعل، وقد تشـــنًجَ قلبه وتجمدت يداه وتحجرت عيناه وانهار فوقها مفارقـــاً الحياة نبيح الجنون في لحظاتٍ قاتلةٍ وكأن زوجته تقـــول له: لا تفعل أرجوك.

# الديك الرومي

جلَسَا أمام المذياع وهما يتحادثان مستمعين للأناشيد الوطنية الحماسية المجلجلة في فضاء سماء قرية كـــوك تبَّةَ التابعة لعين العرب من أعمال حلب الشـــهباء بعـد انتهاء الحرب والمعارك التي خاضها جيشـــنا العربـي السوري الباسل إثر الانتصارات فـــي حـرب تشـرين التحريرية من عام /١٩٧٣/ المظفـــرة دَحْــراً للعــدوان الإسرائيلي واسترداداً للأراضـــي التـــي وقعـت تحـت الاحتلال بعد حرب حزيران عام /١٩٦٧/ في الخـــامس منه وقد استفاق المارد العربي الأبي ونهض مهيباً عظيماً شامخاً مجتاحاً الحصون والمعاقل مخترقـــاً المســاحات الواسعة أمامه وقد أبلى البلاء الحســـن وكـــان نضـــالاً مشرفاً... فرح الشعب الوفي به وابتهجت الدنيـــا وسـعد أهالي القرية الموجودة خلف نهر الفرات المسماة كـــوك تبَّةَ بمسافة تبعد نحو ثلاثمائـــة كيلـــو مـــترٍ وارتفعـت الزغاريد فهو عيد النصر والبطولات العظيمة فقد بدأتـــها مصر بمعركتها المسماة بمعركة العبور علـــى الجبهـــة

الجنوبية ثم دخلتها سورية وكـــان الانتصـــار والغلبــة للأبطال الميامين وما أحلاها فهي فرحة النصـــر وعيــد الفطر وهنا تهيأ كل من الزملاء الموجودين فـــي هــذه القرية والقرية المجاورة استعداداً للرحيـــل بعــد هــذا الصباح المشرق بالفرحة والعزة والشموخ وقد حان وقت انتهاء العمل المدرسي وبدء إجازة عيد الفطـــر. عندهــا اجتمع الزملاء وقرروا شراء بعض الأشياء من القريـــة هدية للأهل والأحباب كالبيض البلدي والســمن العربــي والدجاج الرومي. عند عودتهم لقضاء الإجازة فيما بيـــن أهلهم وتوجهوا لأهالي القرية الذين يبيعون هذه الأشــياء والدواجن ما تيسر لهم من رزق الله ميممين الوجهة نحو حلب الشهباء المدينة الناهضة الواسعة التي تقبــع علــى رابية مُرْتَفِعةٍ في شمال سورية الأبية إنها مدينة ســـيف الدولة الحمداني عريقة التاريخ والأثر والحضارة عـــبر الأزمان والعصور.. وابتاع كل مـــن المعلميــن منــير القاضي وفايز الأسود وفتحي الحاج خليل مـــا رغبــوا بشرائه وبدأت الرحلة من قرية كوك تبَّةَ التي يسكن فيــها فتحي إلى قرية زميليه وكانا عنده ضيفين في تلك الساعة فلا بد من المسير أولاً نحو القرية الثانية لوجود ســـيارة

الأجرة الجيب التي يقودها السائق مرعي في قرية مركز المخفر وللنوم فيها عند الزملاء حتى الصباح من اليـــوم التالي فهو لا يمضي إلا باكراً جداً والمســـافة مـــا بيـــن القريتين تحتاج إلى نصف ساعة سيراً على الأقدام علـــى أقل تقدير وربما تتجاوز ثلثي الساعة أحياناً والوقـــت لا يسمح بالسفر حتى يعود مرعي من سفرته ولا يكون ذلك إلا في الغد من يوم جديد. لذلك لا مـــانع مـــن المشـــي بالأمتعة والحاجيات وقد ودَّعَ فتحي الحاج خليـــل أهـــل القرية بصحبة زملائه متوجهين إلى قرية مركز المخفـــر حتى يوم غد وانطلقوا وهم يتشاورون بالأحاديث حـــول مهمة العلم الوحيد في كل قرية من تلك المنـــاطق ودوره في تنمية القدرات والتربية والإعـــداد والتعليـــم لجميـــع فصول الدراسة الذين يلتحقون بمدارسهم بعد التعيين فـــي تلك المناطق النائية البعيدة ولذلك تكون مهمـــــة المعلـــم الوحيد في المدرسة لعدد من الصفوف في كـــل مرحلـــة صعبة جداً ولا بد لها من مهارة وحسن تدبير حتى يقـــدم الفائدة للجميع بتقسيم العمل ما بيـــن عـــدة فئـــات الأول والثاني، والثالث والرابع، والخامس والســـادس، وتلـــك كانت مهمة المعلم فتحي الحاج خليل تقريباً، لأنـــه كـــان

وحيداً في قريته ريثما ترسل مديرية حلب له معلماً أخـر أو معلمين يقومان معه بعبء العمـــل لـــتزداد المنفعـــة ويستفيد التلاميذ. ثم توجه المعلمون بعد وصولــهم إلـــى قرية مركز المخفر للمنطقة إلى بيت مرعي ليتركوا لـــه خبراً عند أخيه الأصغر برغبتهم وعزمهم على الســـفر معه صباح اليوم التالي بعدها قضوا يومهم فـــي ســكن المُعَلِّمَيْنِ الآخرين حتى الغد. تساقطت الأمطار بغـــزارة حول بيوت القرية التي تظهر للرائي مـــن بعيـــد كأنـــها صوامع غلالٍ وحبوبٍ لأنها مبنية على شكل قباب طينية متلاصقة بجانب بعضها تضيء ليلها بالسِّراج ونـــهارها بالشمس الساطعة، أما في الشتاء فالظلمة تكتسح النـــهار أيضاً ولا يُرى في البيوت إلا أشباحاً تتحـــرك داخلـــها لضعف الإمكانيات وقلة الوقود من حطب ونفط أحيانـــاً، ولِلْمَشَقَّةِ في وصوله إليهم أن الطرقات كانت كلها موحلـة ضيقة تتسرب بين القباب كحياتٍ تتلـــوى فيمـــا بينـــها متعرجة ممهدة لكثرة ما داستها رجل الإنســـان ومشـــت عليها العربات التي تجرها الحيوانات البســـيطة وهـــي تحاذر الوقوع في الحفر التي توزعت فـــي كثـــيرٍ مـــن أرجائها بجانب كل طريق فاغرة فاهاً موحشة خاصة في

الليل. حُفِرَتْ منذ زمن أبيارٌ واحدٌ بعد الآخر للحصـــول على الماء يدوياً حتى جفت وأقفرت فهجرت وتنـــاثرت وقد توجس المعلم فتحي أول الأمر خيفة منها عندما جاء القرية معلماً جديداً وحيداً وكان يخشى خاصة في الليـــل عند تجوله من مكان لآخر من الوقوع فيها وهو ينظـــر باستغراب لأصحابه من أهل القرية كيف يمرون بسرعة من جانبها ولا يقعون فيها فتساءل وسأل أحدهم فأجابـــه: إنها عادة وقد تعودنا على الظلام وحفظنا أمكنتـــها فـــلا شيء يهم ولا نلق بالاً لها فاستغرب فتحي أكثر، كيف لا يلقي بالاً لها وهي تمتلئ بالأفاعي والثعابين وقد سمع عن الكثيرين الذين عضتهم الحيات وليس مـــن طبيـــب، أو مستوصف، أو حتى صيدلية، أو ممرض ليسعفهم في تلك اللحظات العصيبة فازدادت هواجسه ولم يقتنع بما قيـــل، وصاحبه الذي يحدثه أدرد ذهبت أسنانه من كـــثرة مـــا امتصَّ من سمومها ممن يتعرضـــون لعـــض الثعـــابين وأمثالها، فالعلاج الوحيد هو هذه الطريقة البدائية البسيطة في ذلك المكان النائي البعيد عن كل طبابة وعـــلاج، ولا يوجد غيرها أبداً، فسموم الأفاعي مع الأيام تترك أثـــراً كبيراً في فم من ينقذ الآخرين من عضها وتؤثـــر علـــى

الأسنان فتتساقط متآكلة من جذورها متهاوية... طلع صباح اليوم التالي وقد صحا الجو، وبان النهار، وانعقد فوق القرية قوس قزح، حتى السماء متلألئاً بألوانه الزاهية البنفسجية والصفراء والزرقاء والبيضاء عندما لاحت الشمس من وراء الأفق ترسل أشعتها الواهنة الباهتة في جوها الشتوي من شهر تشرين الأول، وقد جاء الشتاء هذا العام مبكراً جداً يبشر بموسم خير وحصاد كبيرين، والفلاحون يسعون في الأرض وبعدها ينتظرون رحمة الله عليها حتى تسعفهم السماء بمطرها فهي فرحتهم الثالثة التي أنقذتهم من القنوط بعد هطول الأمطار. إنهم ينتظرونها بفارغ الصبر ويعقدون عليها الآمال العريضة فالزواج ينتظر هذا الموسم والبناء والسفر وشراء الحاجيات وكل ما يتمناه الفلاح وما يسعى إليه معقود عليه الأمل وعلى مطر الله وخيره فهو بداية الفرج خاصة إذا جاء مبكراً، فالسعادة غامرة والمشاكل تنتظر الحل قريباً. ها هي سيارة ركاب الجيب واقفةً أمام مركز المخفر تتأهب للانطلاق يعتليها السائق مرعي... حرك مفتاح عجلة القيادة فدار محركها بدخانه الذي يبين في الشتاء مقطراً فوق الأرض، بعض النقط عند الدوران

والإحماء استعداداً للانطلاق وقد تـــرك مرعـــي لبـــوق سيارته الزعيق مراتٍ عدةٍ حتى ينبه الركـــــاب ومنـــهم المعلمين... بدا مرعي ضخم الجسم عريـــض المنكبيـــن جهم القامة واسع العينين أجش الصوت قوي العزيمـــــة، يمسك بعجلة القيادة، وكأنه يقود دبابة أو يمسك بمدفع فقد خدم في الجيش مجنداً بسلاح المدفعية.. ماهر متمـــــرس عنيد صلب لا تثنيه العقبات ولا يحفل بالتحديات.

أطلق صوت بوق سيارته الحبيب ثانية ليسرع كـل من تأخر عن الركب قبل أن يتركهم لليوم التالي فتراكض المسافرون وجاء المعلمون هرولة مســـرعين وبأيديـــهم أحمالهم وعلى أكتافهم، فالحمولة هي الركاب والدواجـــن والأمتعة وكل شيء يمكن أن ينتقل بسيارة الجيب فـــهي وسيلة النقل... اللهم إلا الدراجات النارية التي تأتي القرية أحياناً بطلب خاص من عين العرب لتوصـــل واحـــداً أو اثنين بأجرٍ غالٍ ولا شيء غير ذلك أبداً...انتصب فـــوق المركز علم سورية الوطن الغالي مرفرفاً فـــوق ســـارية المخفر يخفق متماوجاً كلما هبت عليه ريح ناعمة طريـــة مشبعة بالندى ورذاذ المطر المتراسل وطيـــور القريـــة تحيط به وقد توزعت فوق الجدران وعلى القباب وأكـــوام

القش وتلال التراب وكوَّاتُ الحمام العالية... وكأنها حراس النهارْ تأخذ دورها بعد مهمة رجال المخفر الليلية والحفاظ على الأمن والنظام وهم يتجولون بين القرى بسياراتهم العسكرية. تحرك مرعي أخيراً بعد أن سدَّ كل منفذٍ في سيارته ومكانٍ وعن يمينه وعن شماله بالركاب والأمتعة والطيور وتراكب الناس فوق بعضهم متلاصقين بالكاد يجلسون، وجهتهم عين العرب في رحلة شاقة وَعِرَةٍ الجبال الجرداء القاحلة إلا من مزارع القطن في مناطقٍ متفرقة ومساكب البساتين التي بدأت حديثاً بالظهور في تلك القرى القَصيِّةِ شمالاً والتي تتاخم الحدود التركية من جهتها الجنوبية الشرقية وقد دبَّتْ فيها الحياة بعد جهود الدولة المتواصلة للحث على الزراعة القطنية والمناطق الرعوية والحبوب بأنواعها من قمح وشعير وما إلى ذلك وبعض الخضروات لتوفير الاكتفاء الذاتي والتصدير إن أمكنهم من محصول القطن، وتلبية الاستهلاك لحاجات أهل القرى، ومع دعم اتحاد الفلاحين السخي الذي يقدم العلف والسماد والإرشاد مما ساعد ذلك على التوطين والاستقرار، وعدم الترحال واستصلاح الأراضي الحبيبة والاستفادة من المساحات الكبيرة

المترامية الأطراف في تلال ومهاد حتى أصبحت تسُــــرُّ الناظر وتبهج النفس وتبشر بالغد السعيد الساطع، فــالقمح والشعير والحبوب بأنواعها والقطن تلــك هــي الغــلال الرئيسة والأساسية في معظــم الأراضــي المســتصلحة للفلاحين، مما طور المنطقة وجعلها رافداً للثروة القوميــة خاصة من القطن الذي يصدر بنوعية ممتازة جداً للخارج ثم الحبوب التي تعوض الاحتياج بما يَسُدُّ النقص وبلادنــا التي كانت تصدر القمح إلى روما والعالم. ها هـــي الآن بفضل جهود الدولة بلغت شأواً جديداً ومكانـــة مرموقــة وعادت تتصدر ساحتها المتقدمة في أهمية الغذاء العالمي لبني الإنسان، وأصبحت سورية من الدول المهمة في هذا السبق تلبي حاجة الشعب والوطن وتقدم الخير بالحصول على العملات الصعبة للدول المحتاجـــة مــن فائضـــها المتوفر في ميزانها التجاري المتوازن، وقد أمَّـــنَ هــذا التوازن القطع الأجنبي وزاد حصيلة الصادرات وقلل من الواردات والاعتماد على الدول المصدرة إليـــها بفــارق كبير فتوجهت الجــهود والمســاعي للتخطيــط والبنــاء والمشاريع العملاقة الفاعلة في أرجاء الوطن.

تلك هي الجهود التي أثمرت متواكبـــة فـــي كــل

الجهات وها هي حقول القمح المعدة للبذار تلـــوح فـــي امتداد الرحلة حمراء بتربة غنية بكر قد شقها المحـــراث الحديث وأعمل فيها الفلاح جهده فصارت حقولاً متوازية كصفحات كتاب مفتوح تقول للناظرين تلك هي الجـــهود الحقيقية والاهتمام من رجال الدولة أمامكم تشـــير إلـــى الإنجازات بكل مجالاتها. رافقت الطريق ما بين كوكِ تبة وقرية مركز المخفر مسافات كبيرة أخرى أيضاً تتمـــيز عن غيرها من كل القرى بغابات أشجار السرو والحـــور التي صارت موئلاً للطيور بكل أنواعها وملجأ للعصـافير والكناري في بقعة خضراء تضم الطيور والحمائم. تغذيها مضخات الماء من الآبار الارتوازية التي حفرت حديثـــاً للسقاية والعناية بالأشجار والزارعة ممـــا جلـــب إليـــها الصيادين من لبنان في هذا الموسم من السنة لاصطيادها ومطاردة القطا والحباري المهاجرة مـــن شـــمال تركيـــا وغيرها نحو الجنوب عابرة تلك المنطقـــة بمجموعاتـــها الهائلة ورحلاتها المعتادة نحو الدفء في الجزيرة العربية ثم العودة شمالاً في الصيف ثانية إلى مكانها الأصلـــي... أثمرت الجهود وسعد المواطن ولا زال الطريق طويـــلاً نحو الإنجازات المتعاقبة المتواصلة وليـــس بالمســـتطاع

إنجاز كل شيء معاً في وقت واحد فالخطوات الجريئة والخطط الخمسية تأتي على مراحل. وها هي بدأت تشق طريقها بهذه الجبال الصعبة الوعرة.. وتغير ملامحها الجرداء القفراء إلى جنان تموج بالذهب الأبيض من القطن والذهب الأصفر من القمح إضافة إلى الذهب الأسود وما بين هذا وذاك يطول الطريق، ويخترق السائق مرعي بسيارته الجبارة كل تلك التلال والمنحنيات والحفر متجاوزاً المواقع المائية التي شكلتها السيول وهو يخوض غمارها غير آبهٍ بها فتارةً يطلق العنان للسيارة وأخرى يهدئ السرعة وهي تنوء بحملها وجبروت سائقها وقد ارتفعت الحقائب والأكياس والصرر فوقها كتَلٍ شاهق عدا عن امتلائها من داخلها بالركاب والطيور والأمتعة... مما يُظْهِرُ تمايلها بوضوح عندما تجنح للانقلاب لكن مرعي وهو العنيد الحازم وقد اعتاد هذا الطريق الجبلي الصعب لا يبالي بهذه العقبات.. صاحت امرأة بخوفٍ ظاهر: (تمهل يا مرعي ستودي بنا إلى الموت) أجابها مرعي: (لا تخافي... السيارة فيها دبل كيير يا حجة).وتابع مسيره وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته اللفّ التي أعدها مسبقاً في علبة الدخان التي

تناولها من جيبه وقدح من ولاعته القديمة بصيص نـــارٍ بعد عدة مراتٍ متتالية فالولاعة قداحة على الفتيل مضافاً إليها عجلةٌ وحجر لقدح الشرر... فهو لا يحب غيرهـــا ويستمتع بها وبسيجارته اللف وكأنه يقول طالما أني أنــا الذي أقود فثقوا ولا تخافوا وهذا النفس ســلطان القيــادة طوى الكثير من القرى متجاوزاً إياها بسرعته الخاطفــة ويحاذيه عن شماله البعيد قطار حلب(الأوتـــو مـــتريس) الذي يمر في الشمال ويصل البلدان الأكثر سهولة وأقــل وعورة من غيرها داخلاً في الأراضي التركية ثم يخــرج منها ليكمل طريقه لبلدان أخرى ثم يعــود. وفــي تلــك المنطقة كان اقرب بمحاذاته لها.. وصوته القوي يجلجـل مدوياً فيسمعه الفلاح والسكان في ذلك المكان.انتصـــــف النهار وبلغ مرعي بحمولته منطقة عين العــــرب علـــى ضفة نهر الفرات الشمالية وهناك حط الرحـــال وأنـــزل الأحمال ليتوزع كل واحد إلى وجهته وليبقى هـــو فيـــها ينتظر القادمين العائدين إلى كل تلك القرى ليعود بهم في اليوم التالي باكراً مع سيجارة لفٍ أخرى وهمـــة جبـــارة متمرسة حاضرة. وقف المعلمون الثلاثة وأمامـــهم كـــل الأمتعة يتحدثون فابتدر الحديث أولاً فايز الأسود قـــائلاً:

(ما رأيكم يا جماعة ها قد قطعنا شــوطين حتــى الآن، السير على الأقدام ورحلة الجبال والآن لا بُدَّ لنــا مــن خوض النهر قال منير القاضي: (وأي نهر...؟) وأتبعــها بضحكةٍ (نحن لا نعرف الســباحة ولســنا فــي فصــل الصيف...) أجابه فايز الأسود: (يا شيخ نهر الفرات وهل سنقطعه خوضاً أو مشياً لا بد لنا من باص كبير ليجتــاز بنا المسافة فوق العبارة..) قال فتحي الحاج خليل: (لازلنا بعيدين عن النهر يا فايز) فسارع فايز الأسود بقوله (بــل لابد لنا من السيارة الكبيرة خير لنا من سيارتين واحــدة لشط النهر وأخرى لحلب الشهباء فهنا يوجــد النوعــان والأفضل الحافلة الكبيرة التي ستنقلنا حتى مدينة حلــب وأنا أدعوكم من الآن لزيارتي يا شباب والنــزول عندي في مخيم النيرب خارج حلب فلا ترفضوا الدعــوة لــو سمحتم...) قال منير القاضي: (يا أخي أنا قريب منك ولا داعي للذهاب إلى مخيمِ النيرب ومخيمُ حندراتٍ ينتظرني للعودة إليه ومشاهدة أهلي وأصحابي) قال فتحي الحــاج خليل: (لا داعي لكل ذلك فلدينا من الأمتعة ما يُثقِلُ حملنا ويَهُدُّ أكتافنا وخير لي استمرار السفر حتى أصل دمشــق على جناح السرعة) فقال فــايز الأســود: (أوَ تحســبني

سأتركك تذهب بكل ذلك وأنا ما دوري إذاً وأين النخـــوة والحميمة يا فتحي؟؟؟ لا مانع من ذهاب منـــير ولكنــك ستبقى معي وسأذبح ديكي الحبش الروميين واعدهما لــك ولن تناقش في هذا مطلقاً..) خضع فتحي للأمر وأذعــن للإرادةِ وأطاع زميله، ثم تحصلوا على حافلـــة تنتظــر القليل من الركاب وكانوا هـــم أول الصـــاعدين، حيـن انطلقت نحو حلب ميممة شطرها نحو الجنوب إلـــى أن وصلت شط الفرات الشمالي وكانت، العبَّارةُ في الانتظار لأنها تعرف مواعيد الحافلات التي تعتليها والمحـــاريث وكل أنواع الحيوانات من غنم وجمال وبقر وحمير، فهي كاليابسة المتحركة فوق صفحة المـــاء الغزيــر والنـــهر العظيم الذي كثيراً ما فاض عن حده وتعطلت حركة النقل فيه مما اضطرها للبحث عن جهة أخرى أقـــل خطـــراً وأسهل منفذاً وكم غمر القرى القريبة منه والواقع بعضها في مجراه أحياناً مما يعيق طرق الإنقاذ ويسبب الغـــرق فيستعمل الناس الحلَّةَ الكبيرة لنقل عدد قليل لا يتجـــاوز أصابع اليد كل مرة فيها وبمجاديف بسيطة حيـــن يزبـــد ويثور مختلطاً فيه الماء بالطين فيعتكر المـــاء ويتوحـــل آخذاً معه كل شيء مقابل بلدة تل العمارنة حتى يتحـــول

النقل إلى تل الأحمر وتل الأبيض في جهات أخرى أقـل خطراً وربما يبتعدون أكـثر حتـى (الرَّقَـةِ) المتاخمـة لمجراه... والتي أقيم في بعض مساحاتها سـدُّ الفـرات العظيم ومشروعه الذي حَوَّلَ الأرض إلى جنات وسـاعد في توليد الكهرباء عن طريـق العنفـات (التوربينـات) الضخمة التي صارت تُغذي مدناً كثـيرة فـي سـورية وتساهم في تغذية شبكات الدول العربية الشقيقة المجاورة كالأردن ولبنان فهذا الصرح العملاق الـذي أُقيـم منـذ السَّبعينات على نهر الفرات والجهود التي رافقته بعثـت الحياة في بلادنا والنور في مدننا وقرانا وأزهر الخير في مناحي حياتنا كلها وما رافقه مـن مشـاريع أيضـاً... صعدت الحافلة بكل ما فيها فوق العبارة وصعد المحراث والعديد من الحيوانات والأمتعة وانطلقت تمخـر عبـاب النهر متلاطم الأمواج فها هو قد ازداد منسوبه، وربمـا من يعبره الآن لا يتمكن بعد ساعتين من عبوره إن عـاد إلى عين العرب ثانية.

وصلت العبارة الشط الثـاني الجنوبـي وانطلقـت السيارة من عقالها سابحة في فضاء واسع عبر المسـافات تجتاز المدن والقرى والأرياف فتلك هي جرابلس ثم منبج

البحتري الشاعر المبدع شاعر الوصف والحماسة وقصيدته في وصف إيوان كسرى خالدة تجسد فَنَّ شعره عبر الأجيال المتعاقبة وتظهر الربيع في ديوانه كأجمل ما يوصف... وتابعت الحافلة رحلتها وبدأ الزملاء بالمساجلات الشعرية فيما بينهم إمتاعاً لأنفسهم ورغبة في طي المسافات والقرى، والمنازلُ تبدو مع سرعة الحافلة كأنها في سباق لا ينتهي... وقبل أن تصل الحافلة مدينة حلب بعشرين كيلو متر تَرَجَّلَ الشُبَّانُ وكل منهم قادم من مخيمٍ اثنان من حَنْدَرَات والنيرب وفتحي من مخيم اليرموك في جنوب دمشق التاريخية الأموية عريقة الجذور مشرقة الوجه الحضاري قابعة عبر العصور بهيبتها الجليلة وتاريخها الحافل وعظمتها الأبدية والتي تكتنفها غوطتان شرقية وغربية تزينها بالاخضرار والجمال والبهاء الساحر ما بقيت شامخة في كل زمان وما بقي شعبها الحرُّ الأبِيِ دماءً دفاقة حارة والتي تطاول الأيام وتبدع الابتكار وتُخَلِّدُ الأساطين...

قرع فايز الأسود باب بيته المتواضع في مخيم النيرب وجميع البيوت والمساكن كلها متشابهة في هيكلها وبساطتها وبعض بيوتها مبني من الخشب والصفيح

والآخر بالإسمنت والحديد غرفها صغيرة، وأثاثها بُسُـــطٌ ومواقد شتوية قديمة والتي يسمى مفردها (المنقل) فوقـــه يضع جمرات من حطب وفحم، قليلة الطوابـــق متوحلـــة الطرق رديئة التهوية سيئة الإنارة بدائية جداً يلعب فـــي طرقاتها الأطفال والأمطار تهطل وهم فـــي غنـــىً عــن الفخامة والحضارة همهم اللعب وبناء المجسمات بـــالرمل والبعض الآخر يتبارزون مع زملائهم بســـيوف خشـــبية صنعوها لأنفسهم وقد مَثَّلَ كل منهم الفدائي والعدو فهم في بوتقة متماثلة تعيش اللجوء بعيداً عن فلسطين التي رزحت تحت نير الاستعمار إبَّانَ الحرب العالمية الأولى بدخـــول الجيش البريطاني والذي مهد فيما بعد بتواطئ حكومتـــه لدخول اليهود وهجراتهم المتلاحقة وقرارات التقسيم ووعد بلفور الجائر بمنح فلسطين لليهود كوطـــن قومـــي لـــهم، رسخت هذه المأساة جذورها في الأجداد والآباء والأحفـــاد ولا زالت الصورة بادية في أفعال الأطفال في أزقة مخيـم النيرب وكل المخيمات الموجودة في العديد من الأمكنة لقد استعاد فتحي الحاج خليل تلك الصور التي ألفها في مخيـم خان الشيح ومخيم فلسطين واليرموك ودنـــون وجرمانـــا وخالد بن الوليد في حمص مروراً بالمخيمات في لبنـــان

كمخيم صبرا وشاتيلا وكذلك البقعة فـــي غـــرب عمـــان والوحدات في شرقها وما أكثرها موزعة في الشتات تشير كلها لأصابع العدوان الصهيوني الآثم وتواطئ الاسـتعمار البغيض وتؤكد دور الدول العربية المحيطـــــة بفلسـطين وسعة صدرها لاستقبال أبنائها وإقامتهم علــــى أرضـــها وشمولهم بالعناية والاهتمام مما عزز روح الثــأر ضــد العدوان وأصل في الأبناء تقدير ذلك الموقف مـــن قبــل الدول الشقيقة والمساندة للحق والعدل في جميع الظــروف حتى استعادة الوطن الســـليب... ولــم يقــف الإنســـان الفلسطيني عند هذا الاغتراب والاستكانة للضعف والهوان فقد تجاوز محنته وعصف باغترابـــه وكـــان جديـــراً أن ينهض من كبوته. ويحقق ذاته من خلال التعليم فهو سلاح كل ناجح والشعب الفلسطيني هو أحوج ما يكـــون إلـــى ذلك... فتحت امرأة عجوز باب بيت فايز الأسود وأطلــت برأسها فوجدت ابنها فرحبت به وقال لها: (معي ضيــوف يا أمي...) فازداد ترحيبها به وبضيوفه وأطلقت زغــرودة عالية فلسطينية وتجاوبت أصداؤها مع جدران البيت حتى شاركتها بناتها الثلاث واشتعلت الحارة بالزغاريد علـــــى سماع الزغرودة الأولى وتعاظم الترحيب ودبت في البيت

حركة غير اعتيادية فماذا يفعلون وهم في غاية البســاطة وضيق الحال لكنهم كُرماءُ فالموجود خير ما يقــدم مــن شاي وقهوة وبضع حبات من فاكهة الشـــتاء البرتقاليــة.
دخل فايز وزميله فتحي وَعَرّفَ فايز عليه أمام أهله وأنــه من مخيم اليرموك في دمشق فقالت الأخت الكبرى: (نحن شركاء إذاً... أهلاً وســـهلاً ويـــا حيـــاك الله.. تفضلـــوا بالجلوس. المكان متواضع... نعتذر يا أستاذ فتحـــــي...) أجابها فتحي وعلام الاعتذار وكما قلـــتِ نحـــن شـــركاء والحال واحدة يا آنسة). كانت بهيجة معلمة في مـــدارس نيرب حلب التابعة لوكالة الغوث، صبية يافعـــة ناضجـــة كأنها رجل في تعاملها تختلط بزملائـــها مـــن المعلميـــن ولكنها ملتزمة بالأخلاقيات وطنية الاتجاه ثورية الشـــعور حاضرة البديهة تحب وطنها الســـليب وتعشـــق وطنـــها المضياف وقد وقعت في نفس الأستاذ فتحي بمكان القلـــب بهره وطنيتها وسحره جمالها وملك عليه حسه وأسعده أن يجد مثلها في شعبه الذي لا زال علـــى عـــهده وولائـــه وانتمائه لفلسطينه... همس فايز الأسود في أذن أمه قائلاً: علينا بإعداد الطعام يا أمي والآن ها هي الساعة الخامســة مساءً ونحن صائمون، وفتحي لا يحب التأخر عن أهلـــه

أسرعي مع شقيقاتي بالطعام مع المغرب ثم لديــــه ديكــا حبش روميان في فسحة الدار لا بد من ذَبْحِهِمَا وتنظيفهما ليأخذهما معه في رحلته بعد الإفطار) قالت الأم: (حــاضر يا فايز كل شيء سيكون جاهزاً إن شاء الله) وانصرفت.

قال فتحي: (حقاً أنا سعيد بزيارتكم فأنتم مثل أهلــي وقد وجدت فيكم اللهفة والطيبة والبساطة والترحيب وهــذا زَادَ سعادتي ولو تأخرت عن أهلي بالوصول إليهم) دخــل أبو فايز الأسود بيته بعد قليل قبيل أذان المغرب اسـتعداداً للإفطار فوجد فتحي يجلس على أريكة فــوق بســاطٍ ... تعارفا فازداد الترحيب خاصة أن أبا فايز يعرف بعــض الأصدقاء في مخيم اليرموك فتوثقت الصلة عبر الحديـث واستأنس كل واحد بالآخر وتسامرا مع طعام الإفطار ثــم ودع فتحي الجميع واستأذن بالانصراف مغادراً وهو يقول لزميله فايز: (أحب مصاهرتك يــا فــايز... فــهل أجـد فرصتي عندكم بالزواج ؟؟؟) استغرب فايز مــن زميلــه لهذه السرعة ثم قال: (ومن هي؟؟) وعقب: (نحن في جـو البيت تسودنا الديمقراطية وحريـــة الــرأي فمــن هــي أخبرني... من اخترت حتى أتصرف؟!.)

قال فتحي: (هي تعرف نفسها أظنها بهيجة). فقــد

كانت تنظر إليه من طرف خفي قال فايز: (ما رأيكِ يـــا بهيجةَ إنه يطلبك زوجة يا أختي فهل توافقيـــن؟) أســبلت بهيجة عينيها بالموافقة دون كلام ومضى فتحـــي الحـــاج خليل على أمل العودة بصحبة أهله خاطباً لـــها... وهـــو يحمل الأمتعة وأبقى ديكاً رومياً واحداً عربـــون تقديـــر ووفاء واقتران.

# قطرات من ذاكرة الفكر

القصة بدأت بحكاية نسّاج ثياب وأمير

وحضورٌ جاء لتصفيقٍ في كل قرارٍ ومصير

تذكر عمرو هذه العبارة عندما كـان يجلـس فـي المقعد الأول من الصف الأمامي في مسرح المدينَة وهـو يشاهدُ ما يراهُ أمامهُ مشابهاً لما كان قد قرأهُ عليه يومـاً ذلك المدرس الحريص أن يُفَنِّدَ كل شيء لتلاميـذه فـي حصته التي كان يدرسها في مادة اللغة العربية من كتـاب القراءة في الصف الخامس حول مشهد في درس ما بيـن أميرٍ ونسّاج وحاشية وحضور... إذ لخّص عمرو كل مـا قاله ذلك المدرس في عبارة مختصرة بعد أن أمعن النظر في شرح المدرس باستشرافِ مضمون مشهد المادة وكـان كثيراً ما يفعل هذا وكأنه أديب أو كاتب أو شاعر يلاحـظ ويتلقى ويمعن النظر ويفكر ثم يبوح بعدها بما فاض على لسانه من خواطر تفاعلت مع نفسه لِتُكَوِّنَ ما يشبه الحكمة

الموجزة أو القول المأثور للمدرس إذ ذكر ما قاله بصوت مسموع (القصة بدأت بحكاية..) وأكمل عبارته.. هكذا قال عمرو لمدرسه بعد استجلاء ما سمع حول مضمون القصة فاستغرب منه المدرس ما نطق به وطلب منه أن يعيد عليه ما تفوه به منشداً ثانية وما قد جرى على لسانه... إذ مثل هذا القول لا يكون إلا للكبار من البالغين الذين عرفوا الحياة فأثمرت تجاربهم بِحِكَمٍ ولكن لم لا يكون عمُرو أحد هؤلاء طالما أن المدرس يعهد منه النبوغ والوسامة وحسن الإلقاء والحضور الدائم لكل ما يشرحُ ويقول. وما الغريب في ذلك فقد أثنى عليه مدرسه وشجعه وَرَبَتَ على كتفِه قائلاً: أحسنت وأبلغت ولا شك أنك أوجزت فيما قلت حكمة هي أصدق ما يمثل المشهد بطلاقةٍ وسلاسةٍ وعفو الخاطر يا عزيزي..

لكن عَمْرَاً خاطبه مقاطعاً: لا يا أستاذي ما كان ذلك عفو الخاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصاد الانتباه (والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون) فازداد استغراب الدرس وتعاظم إعجابه بتلميذه النابه أكثر وأكثر وشجعه ثانية على مثابرة الاطلاع والقراءة ليعزز موهبته

بالجديد لما يكتبُ وينشر في قابل الأيام وتوقع له مستقبلاً مُشَرّفاً مُشرِقاً.. وقد كانت تلك الصورة هي التي عبرت خياله عندما كان يشاهد عرض المسرحية يومها وهو في إحدى سفراته إلى قطرٍ عزيز عليه، له فيه أصدقاء وندماء وأحبة هو مصر. وقد كانت لديه فسحة من الوقت فارتأى الذهاب إلى المسرح، وكثيراً ما تردد على معظم المسارح هناك وشاهد عروضاً كثيرة في العاصمة القاهرة، وكذلك مَدينَةُ الإسكندرية "كمسرح البالونة ومسرح المد بوليزم والعديدُ وغيرهما".

ولكن ما شَدَّ انتباهه اليوم هي تلك المسرحية التي رآها والتي كانت تمسّ وتر الإحساس وتظهر ببراعة ما كان يأمل أن يراه يوماً مشابهاً لما قاله وهو صغير في قاعة الدرس مع مدرسه في الصف الخامس..

فبدأت مقارنته وتذكر ما قاله للمدرس وما كان وقتها من إمعانه في المشهد وعبارته التي قالها..إذ ذاك..

هي...القصة بدأت بحكاية نساج ثياب وأمير.

وحضور جاء لتصفيقٍ في كل قرارٍ ومصيرٍ.

وبدأت ذاكرته تستعيد تلك الصورة التي طبعت في مخيلته يوماً وعيناه تتابعان العرض المسرحي ولكن ذهنه رحل مع خيالاته القديمة ليستعيد ذلك المشهد فما أشبه الأمس باليوم إنه يجد توافقاً وتقارباً في الصورتين وابتسم مستغرباً محدقاً مسترجعاً غارقاً في اللوحات والعبارات والمشاهد. أليس ما سمعه يتقارب في نفس الموقف مع ما يراه الآن. حقاً إنها مفارقات عجيبة وتوافقات أحياناً وكما يقال "وقعُ الحافرِ على الحافرِ". فقد رأى في صورة الأمير ما يماثل حالياً من صور كثيرة أحياناً..

وما شجعه على استحضار الذكرى وتوارد الخواطر صوت الممثلين المرتفع فتجسدت في تلك اللحظة ما مثّلهُ التلاميذُ الصغارُ أمامهُ لذلك المشهدِ حيث جلس الأمير على مقعده المرتفع بأبهته المميزة وحوله لفيف الحاشية وإلى جانبه وزيره الساحر يهمس في أذنه: ها قد جئنا لك يا مولاي الأمير بالنَّسَّاجِ البارع المبدع وسترى من براعته وقدرته على العملِ والإتقان وحسنِ الصنعةِ ما يَشُدُّ الانتباه ويأخذ بالألباب والعقول .

وقد كان الجمهور والحضور من بعـــض العامـــة والكثيرين من المقربين لحاشية الأمير وندمائه ووزرائهِ.. وطفل صغير يجلس بجانب والده..

إذ ذاك أردف الوزير الساحر قائلاً: هيا يا نسَّـــاجنا البارع اصنع لنا رداءً جديداً.

كما فعلت بالأمس القريب فــــي حضــرة مــولاك الأمير. ثم اقترب الوزير الساحر مـــن النسّـــاج الحـــائك ليهمس في أذنه محدثاً: "كما علمتك وأخبرتك وأوضحـــت لك.. ولا تخش شيئاً".

بعدها صدح صوت الوزير الساحر عالياً ثانية: هيا ابدأ براعتك وأحسن صنعك واجتهد فيما تفعل..

أحنى النساج الحائك رأسه موافقاً بالإيجاب منتظـراً إشارة الأمير له بالبدء فوافاه الأمير بها وبـــدأت القصـــة وتتابعت الحكاية.. بدأ النســـاج الحـــائك ينصـــب قوائـــم وعارضات نوله استعداداً للنسيج وصنع الرداء المزخرف المزركش لشخص الأمير العظيم وتوالت حركاته بوضـــع خيوط الحرير وشدها على النول كاللحمة والسداةِ محركـــاً

المكوك فيما بينها يمنةً ويسرةً متأنياً في عمله بارعاً في حركاته وكان في ذلك يصاحب العمل بالقول أمام الحضور والنظارةِ قائلاً: "لابأس فقد اخترت من الألوان أزهاها ومن الخيوط أقواها ومن آلة الصنع أجودها لتتناسب مع مستوى العمل ونفاسة الهدية". وتابع محركاً يديه ورجليه فيما يصنع ويحيك شارحاً كل خطوة أمام حضوره بدقة متناهية ليستمتع الجميع بما يفعل وما يبدع..

عارضاً كل ذلك في قاعة الأمير والحضورُ في شغفٍ بالغٍ وتقدير وإطراء واهتمام والجميع مشدود في انبهار ودهشة مأخوذين بكل ما يفعل ويبدع... والأمير يهز رأسه مشيداً ناظراً لحسن العمل بالرضى منتبهاً شأن الحاضرين والوزير الساحر يتخيرُ عبارات الثناء ليخلعها على النساج الحائك فتتجاوب عباراته مع ما يتلفظ به كل من الجمهور بصدى يَرّنُ في أرجاء القاعة مجاملين موافقين لكن الصبي كان ينظر إلى كل ما يراه أمامه بدهشة أغرب واستفسارٍ أعجب.

ينظر إلى الأمـــير تـــارةً مســتغرباً اســتغراقهُ واندماجه وتارةً يراقب الوزير الســاحر وأخــرى نحــو الحضور بانبهارهم ودهشتهم، حتى كان أن قال الحــائك: "الآن وقد انتهيت من عملي هذا أشــكر لكــم إعجــابكم وسأقدم ما صنعت هدية لمولاي الأمير فتعالت الـــهتافات وكثر الثناء وعبـــارات الاستحســان المغلــف بـــالمديح والمجاملة..

لكن الطفل الصغير الـــذي كـــان مســتغرباً أشــد الاستغراب منفعلاً أشد الانفعال، مستهجناً ذلك العمل الذي لا يُرى والفعل الذي لم يتحقق، صادقـــاً فـــي أحاسيســه ومشاعره، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض من كل هؤلاء. فما كان منه إلا أن صاح قائلاً: أنا لا أرى شــيئاً سوى حركات لرجل أَوْ هَمَكُمْ بما يفعل.. فعلام الدهشــة والانبهار؟؟. والعجب والابتسام والضحك؟؟. لا شك أنكــم بلهاء؟؟ لا ترون غير الأوهام.. "وكأن علـــى رؤوســكم الطير" فَأُسقِطَ في يدِ الحضور وشعروا بالخزي من ذلـــك الصغير الذي أيقظ فيهم صحوة الجرأة وحســـن الانتبــاه

وعدم الاقتناعِ إلا بما هو صادق وهو حقيقـــي وواقعـــي ملموس. من غير خوف أو رهبة أو تهديد..

وقد شعر عمرو لساعتهِ أنه يُرَدِّدُ بصوتٍ منخفـضٍ ثانية ما قاله وقتها...

القصة بدأت بحكاية... وعبارته الثانية التي كـــانت رداً على استحسان المدرس.. لا يا أستاذي ما كان ذلـــك عفو الخاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصـــاد الانتبـــاه والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون..

وهنا علا التصفيق في صالة المسرح من جمـــهور الحضور معلناً ختام المشهد الأخير من مسرحية الانبـــهار فصفق مشجعاً لمسرحيةٍ أو قصةٍ أحب أن يشاهدها واقعـــاً صحيحاً فتجسدت أمامـــه بممثليـــها ومشـــاهدها فخـــرج والابتسامة تعلو شفتيه بالأمل في غدٍ سعيدٍ مشرقٍ.

# أمانة الرسول محمد بن عبد الله (ص) في سيرته العطرة

بينما كان رجل الإنسانية ونبراس العفاف وسيد العرب والعجم محمد بن عبد الله (ص) يتوجه نحو الكعبة ماراً بقبائل العرب المتناحرة، إبَّان وضع الحجر الأسود في بناء الكعبة، وقد كان محمد (ص) يشغفه التأمل في خلق السموات والأرض.. والخالق الحقيقي للكون الواسع.. منزل المطر.. ومنبت الشجر.. ورب العرش العظيم الذي تنزه عن كل وصف، رب الأرباب ومرسل السحاب، وواهب الألباب، الله الواحد القهار الذي خلق محمد بن عبد الله (ص) هادياً للعالمين وخير الأولين والآخرين. وقد قال فيه سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم).

محمد (ص) الذي أصبح رسول البشرية ونبي الإنسانية، فأخلاقه في عصر الجاهلية نقية من كل دنس، بعيدة عن

الرجس والمعاصي، وهو الصادق أمين. فتلك شيم الرسول (ص)... ومن لا يحب التعرف على صفات شفيع البشرية والمسلمين المؤمنين؟!..

وذلك أنه كان يختلف بصفاته وعاداته وأخلاقه ومعاملاته وكل سماته عن أي إنسان آخر عاش على أرض الجزيرة العربية وتحسس ما تعانيه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ومرارة الوأد ومجالسة الغواني والقيان ومنادمة الجلساء في ليالي الطرب الحمراء، والعادات الموروثة الهمجية من شرب للخمر وضرب بالقداح ولعب القمار وعبادة الأصنام.

وتلك آلهة كانت لعرب الجاهلية كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.. وقد كانت الكعبة تغص بأشكال الحجارة التي تمثل هياكل الآلهة والتي لا تغني عن الله جل جلاله في شيء من حجارة صماء منحوتة، وهل من ينحت إلهاً بيده يكون طريقاً للعبادة والتقديس فذلك منتهى الحمق وسذاجة العقل وسخف التفكير. فالله خالق الكون هو الواحد القهار، خالق الليل والنهار ومالئ الضرع رب

العرش العظيم، فالشمس تطلع من الشرق وتغوص في المغيب بمشهد رائع، والبحر يهدر بعبابه الزاخر وكل ما في هذا الكون له نظام دقيق محكم، أليس لذلك من خالق ومعبود، أبدع صنعه وأحكم اتقانه.. بلى فهو الله خالق كل شيء.

وهذا ما كان يدفع محمد بن عبد الله (ص) للتأمل والتفكير والبحث والاستقصاء عن كل الترهات التي حكمت عادات العرب في مجتمع كان الطغيان والكفر والفساد والحروب والتناحر، أولى تلك الأسباب التي لم يألفها وعافها منذ أن وجدها في مكة ولم ينخرط بها، ولم يتعامل معها، بل كان يرفضها ويبحث عن القيم السامية البديلة لما يراه سيئاً وقبيحاً في مجتمع الجاهلية.

ألا ترى أيها القارئ العزيز أن من يرفض مجتمعاً سيئاً ليجد ما هو فاضل ليتعرف إلى الخالق المصور والمعطي الوهاب.. فالله ذو الأسماء الحسنى.. وصفه بأنه على خلق عظيم.

فمحمد (ص) ولا شك يستحق أن يكون سيد البشرية، فقد عاش شبابه متأملاً عابداً متفكراً في خلق السموات والأرض، باحثاً عن الله في كل آياته ومحمد (ص) لم يسجد لصنم قط ولم يتعايش في الأجواء التي اعتادها زعماء قريش ومجمل العرب، وقد تحلّى بالأخلاق الكريمة، وعلى رأسها الصدق والأمانة.. والأمانة أعلى مرتبة في أخلاق الإنسان. بيد أنه كان موضع الثقة، وموئل الأمانة والاستقامة وإليه يتوجه من أراد ذلك.

وقد تجسدت تلك الصفات فيه بعلاقته مع من سواه، حيث اختلف زعماء قريش وقبائل العرب في وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة بعد أن تهدمت وأعيد بناؤها، وكادت المشكلة توصلهم إلى الصدام والقتل والتقاتل كي يفوز من هو أجدر بالمكانة والرفعة والسطوة لقوة بشرف وضع الحجر في مكانه. وكان "اقتراح أبو أمية"[1] وهو تحكيم أول داخل عليهم.

---

[1] – من كتاب تأملات في سيرة الرسول: ص ٢٢-٢٣، للدكتور: محمد السيد الوكيل.

فلما انتهى إليهم رسول الله (ص) أخبروه الخبر فقال: (هلموا إليّ ثوباً[٢]) فأتى به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم رفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه.

والحقيقة التي لا خلاف عليها هي أن محمداً قد حسم النزاع الملتهب الذي كاد يقضي على منزلة قريش بين العرب، وحفظ عليهم وحدتهم التي كانت معرضة للانهيار وقد قبلوا تحكيمه بشوق أكثر لأنه الصادق الأمين. ومن الجدير بالذكر أن الرسول محمد (ص) كان يرعى الغنم وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ص) قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ قال نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة".

ورعي الغنم يحتاج إلى سعة الصدر وحسن الحيلة وطول البال وإذا فقد الراعي شيئاً من ذلك ضاق بغنمه فنفرها أو ضاقت هي به فنفرت منه، وفي هذه المهنة من

---

[٢] – نفس المصدر.

الصفات العظيمة التي يكتسبها من يؤديها أمور مهمة مثل: حسن السياسة والحرص على الرعية والانتباه واليقظة. وكل هذه الأمور مجتمعة في واحدة من أهم صفات الإنسان ألا وهي (الأمانة).

فالأمانة من أهم صفات الراعي الأمين، وحيث أنه مؤتمن على ما تحت يده فإذا لم يكن أميناً عرض رعيته لكثير من المفاسد، وفقد شيء منها يؤدي للخيانة. ولهذا أراد الله عز وجل لكل رسله أن يرعوا الغنم ليقودوا أممهم على أساسها قيادة رشيدة.

وهذه الصفات واضحة جلية في حياة الرسول عليه السلام فكان يقظاً لكل ما يفعله أصحابه لا يرى مخالفة ويسكت، وكان يتفقد أصحابه إذا غابوا ويطمئن عليهم إذا حضروا ويعودهم إذا مرضوا وما أعظم وصف الله له: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

وفي حرص الرسول على أصحابه وأمته أمانة كبرى ولذلك كانت أمته خير أمة أخرجت للناس، فرعي

الغنم وأمانة الراعي فيها يقود إلى أمانته في رعيته فيما بعد والحفاظ عليها وصونها.

ومن المفيد أن نذكر أن قوم الرسول قد سموه منذ صغره بالأمين، ويكفيه ذلك أن قومه كانوا يودعون نفائسهم وأموالهم التي يخافون عليها عنده، حتى هاجر إلى المدينة وأماناتهم لا تزال في بيته، وقد ترك علياً رضي الله عنه ليردها إلى أصحابها ويؤديها إلى من ائتمنه عليها.

والواقع أن الأمانة قد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها لثقلها، وحملها الإنسان، والإنسان بطبعه فيه الخير والشر والحب والكره والمتناقضات جميعاً، فمتى كان يتحلى بالنبل والتسامي وحسن الأخلاق سمت به تلك الصفات إلى العلو والارتقاء نحو القيم السامية العظيمة. وإن كانت الرغبات الدنيّة الدنيوية تملك عليه إحساسه وتفكيره كان ذلك الإنسان مخلوقاً عجيباً لا يعترف بنعم الله فيفسد في الأرض وينحط إلى قاع الدنيا، وشهواتها فلا يصلح أن يتحمل عبئاً

أو يرعى أو يؤدي أمانة أو يَعِد بصدق القـــول وشـــرف الكلمة ولذلك قال الله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَـهُولاً) لأن بعض الناس يؤتمنون فلا يرعـــون أماناتـــهم ويخونـــون ويخدعون، ويجهلون على غـــيرهم بظلمـــهم وعدوانـــهم فيصيرون كما قال الله آنفاً في الإنسان.

والله سبحانه في الآية الكريمة، يصف قيمة الأمانة وعظـم المسؤولية عندما عرضـــت علـــى السـموات والأرض والجبال والرواسي، فأبين أن يحملنها، وذلك لما للأمانـــة من قيمة كبرى ولما بِحملها والمحافظة عليها من مكانـــة مهمة، وقد عرضت على الإنسان فحملها، والإنسان أهـل للمسؤوليات فقط للصالح المصلح، والراعي الأمين لكل ما يوكل إليه فيحفظ ويؤدي ويصون وهو صاحب الأخـــلاق الحميدة والسيرة الكريمة.. ومَنْ غير محمد بن عبـــد الله (ص) كفئاً لذلك وقد حمل رسالة السماء رسالة التوحيـــد من رب العالمين عن طريق جبريل عليه السلام، وأداهـــا حق أدائها وكان لتلك الأمانة مآثرها على العـــالم اليـــوم، ونشر دين الإسلام في أقطار الأرض وبين جميع الأجناس من البشر، ولو لم يحفظ تلك الأمانة ويسعى لها ويـــهاجر

من أجلها ويتحمل أذى المشركين والكفار ويقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله لما كان دين الإسلام يشمل المعمورة ويسكن أفئدة المخلصين لدين الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ).

فأمانة الرسالة ونشر الدعوة والصبر على المكاره والجهاد في سبيل الله كان الطريق لخير العالمين، والرسول محمد (ص) من أولي العزم من الرسل، فهو خاتم الأنبياء وآخرهم وأفضلهم وقد صعد إلى السماء ورأى ما رأى لأنه أهل لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وقد قال الله فيه: (وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ نْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ).

ولا يخفى عنا قصة الرسول وزواجه من السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين التي اختارته ليذهب بتجارتها إلى الشام بعد أن قالت لعمه أبي طالب (أعطيه ضعف ما أعطي رجلاً من قومه) فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة، فلما رجع بالتجارة من الشام أرسلت خديجة مولاتها "نفيسة" بعد أن أعجبت بأمانة الرسول، فقالت له نفيسة: "ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما

أتزوج به. فقالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والشرف ألا تجيب؟ فقال (ص): من هي؟ قالت خديجة بنت خويلد... فوافق وتم الزواج ولها من العمر أربعون سنة وكان عمره خمس وعشرون".

وخِصال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هي التي كانت طريق الحب والمودة من الناس إليه.، ونحن المسلمون نسير على هدى رسالته وحسن معاملته وأمانته المتميزة، فمن أراد بلوغ التبوء والارتقاء والسمو والعلو سما بأخلاقه واتخذ من أخلاق الرسول محمد (ص) هادياً له ونبراساً ليجد له بين الناس المحبة وحسن القبول والإقبال.. وهكذا.

والأمة الإسلامية كما قال الله تعالى: (كُنْتُم خَيرَ أمَةٍ أُخرِجَتِ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعروفِ وتَنهُونَ عَن المُنكَر) وشرف الانتساب إلى الأمة الإسلامية لا يعاد له شرف بين الأمم فقد كرمها الله بنبيها المرسل والهادي الأمين وقد قال الشاعر في سيرة الرسول العطرة الأبيات التالية:

لله درك كـم لا قيـتَ مِـن عنـتِ

كي يُصبحَ الدينُ فوقَ الأرض مُنتشـراً

آمنـت بـالله إذ حُمِّلْـتَ أعْبَـاءً

لم تألُ جُـهْداً وقـد أعلنتـها جَـهَراً

صُنْتَ الأمَانةَ عبرَ الدَهْـر فـازدهرتْ

من هَدْي سيرتكَ الغَـرّاء مـا بَـهَرَاَ

## وأنا لعلى خلق عظيم

# نهاية المطاف

أقلعت الطائرة في الساعة الثانية من أرض المطار في طرابلس الغرب ظهراً نحو أوروبا تحمل عليها عمالاً من دول أوروبا الشرقية لشركات كانت تعمل في ليبيــــا وانتهت مهمتهم بعد إنجاز أعمــــال الشـــركات عــائدين لبلادهم متخمين بالبضائع والهدايا ودفاتر الشيكات فـــي تلك الفترة من الإنجازات الحضارية والعمرانية الشـــاملة في كل البلاد ولم يكن على ظهر الطائرة سوى اثنين من الشرق العربي ضمن ذلك الكم الهائل من رعيل العمـــال العائد نحو بلاده في ذلك اليوم.. وقد تجاوزت الحـــرارة في أرض المطار نسبتها المعتادة حتى بلغت أكـــثر مـــن أربع وأربعيـــن درجـــة مئويـــة... فالشـــمس المحرقـــة والرطوبة العالية والوقوف في قاعة المطار مـــع ذلـــك الازدحام وتلك الأعداد التـــي تربـــو علـــى الثلاثمائـــةِ مسافر... كل ذلك ساعد على ارتفـــاع الحـــرارة فـــوق المعقول وصار الجو خانقاً قابضاً يثير الضيـــق ويبعـــث

على السأم والانعتاق من ذلك المكان حتى جاء الفرج بعد ساعات طوال من الوقوف وتـــأخر الطـــائرة.. فتدافـــع الركاب فرادى وجماعات إلى سلم الطائرة بعد إجــراءات الجوازات والشحن والتفتيش كي تقلهم الطائرة اليوغـــو سلافية إلى صوفيا عاصمة بلغاريا في أوربا الشـــرقية... جلس باسم أحمد أبو الوعر بصحبة زميله سعيد السيد في مكانين متجاورين متلاصقين في الدرجة السياحية حيـــث المقاعد الأولى والتي تتقدم الأجنحة ليسهل النظـــر إلـــى الفضاء الفسيح الواسع والبحر الممتد مـــن تحتـــهم إلـــى اللانهاية فهما لا يَرَانِ بعد الإقلاع إلا المـــاء والفضـــاء والسماء. كثرت الجلبة والحركة في الطيارة بداية حتـــى استقر الجميع وبدأت المضيفات بعـــد وضـــع الأحزمـــة بتوزيع العصائر وحبات السكاكر وبيع الدخان وأنـــواع المشروبات الكحولية والروحية وبعض زجاجات العطـــر الفاخرة.لم يكن يشغل بال الزميلين ذلك الذي يُقَدَّمُ وَيُبَـــاعُ بقدر ما انشغلوا بما قاله المضيف الأول حـــول أســـاليب السلامة واستعمال الأدوات عند الخطر كتلك التي توضع للتنفس ثم المزلاج الذي هو بديل لسلم الطائرة وما إلـــى

ذلك.من نصائح قدمت بشكل سريع وعلى عجل وكيفية استعمال وسائل التكييف والتهوية بالإضافة إلى الإشارة لوجود المجلات والصحف اليومية في جيوب المقاعد التي يجلس عليها الركاب... جاءت إحدى المضيفات بأنواع العصير والبيبسي متقدمة من الراكبين الجديدين على طائراتهم وهما مستغرقان في الأحاديث حول بداية الرحلة ودواعي سفرهما، فهمست للأقرب إليها باللُّكْنَةِ الإنكليزية ليأخذ كوباً ففعل وتناول زميله كوباً آخر...وهما قد اتفقا على السفر وقضاء الإجازة خارج مكان عملهما والتوجه نحو أوروبا لقضاء المدة المتبقية من إجازة عطلة الصيف سائحين في ملك الله الواسع. فالسفر والترحال والتجول كل ذلك من صميم الرغبات الملحة نحو استكشاف المجهول ومشاهدة الدنيا على حقيقتها والتمتع بجمالها أينما كان ذلك موجوداً... تلك هي الجولة الثالثة التي قاما بها معاً فالأولى كانت في تونس الخضراء والثانية في مصر والثالثة هي هذه نحو أوروبا وبداية إلى بلغاريا... أولاً تَحَدَّدَ يوم سفرهم بعد أسبوع تقريباً ريثما يُنْجِزُ كل منهما إجراءاته الوظيفية

والانتهاء من الامتحانـــات والمراقبـــة فـــي اختبـــارات الشهادات العامة، وتحضـــير الأمتعـــة اســـتعداداً لليـــوم الموعود. ثم إنجاز التأشيرات على جـــوازي ســـفرهما وتذكرتي الطائرة وكانت هي الأولى وقبل كل شيء لـــهذا كان لا بد من تحديد الوجهة وإنجاز الحجز والتأشـــيرات. ذهبَ سعيد السيد قبل مغادرته بنغازي (نحـــو طرابلـــس الغرب) إلى صندوق بريده أولاً ليستطلع ما فيه كـــآخر عمل يقوم به منتظراً زميله باسم أحمد حتى يـــأتي مـــن مدينة إجدابيا في عمق الصحراء، التي يعمل فيها ضمـــن حقول النفط كي ينـــزل عنده تلك الليلة وقد انتهى كـــل شيء ولم يبق سوى المغادرة بالطـــائرة الداخليـــة مـــن بنغازي إلى طرابلس ومن هناك الطائرة اليوغوســـلافية التي ستغادر لأوروبة.. فتح سعيد السيد صندوق بريـــده فتفاجأ ببرقية في صندوقه تطمئنه عن جميع أفراد العائلة وأحوالهم وأنهم بخير وهم ينتظرون قدومه إليـــهم فـــي إجازته الحالية حتى يكمل إجراءات الخطوبة التي تمـــت مع الفتاة الجميلة والتي تتصـــل برابـــط النســـب بيـــن العائلتين.. لم يصدق سعيد السيد هذا الأمـــر واســـتهجنه

كثيراً وضرب كفاً بكفٍ فمتى كان لرجل في هذا الزمـان أن يطلق العنان لأهله حتى يتولوا عنه مهمـــة الخطبـة والزواج من فتاة لا يعرفها ولايعرف عنها شيئاً أبـداً ولا حتى رآها مطلقاً، هَزَّ رأسه مستغرباً ولَمْ يُبْلِغْهُمْ برغبتـه في أن يفعلوا ما فعلوا.. ترى متى كان هذا الأمر؟ ومـن الذي أو كلهم بهذه المهمة؟ وكيف اتخذوا قراراً من تلقـاء أنفسهم عنه دون أن يعلم؟ حتـــى أصبحـت إجـراءات الخطبة والزواج بالمراســلة وعـن طريــق الرســائل والبرقيات وكيف لهم أن يدركوا مواصفات الزوجة التـي سيقترنُ بها مستقبلاً.. لا بد أنهم اختاروا عنه وقطعـــوا بأمرهم وها هي النتيجة موجودة بكلمات البرقية المقتضبة ولا شك أنها مأساة حقيقية سيكون هو أحد ضحاياها عمـا قريب. واستغرب أكثر حين قال: (ألا زلنا بعصر التخلف والجهل والتصرفات التي عفى عليها الزمـــن وطوتـها سجلات التحديث إلى غير رجعة حتى تعود ثانية لتلبسني ثوبها وتخلعه على جلدي دون نقاش أو اعـــتراض؟!).. قرأ سعيد البرقية ثم أعاد قراءتها ثانية غير مصدق لمـــا يقرأ ثم تحقق من كل حرفٍ وكلمة فيـــها مستشـفاً مـن

خلالها كُنْهَ المضمونِ والغاية وإن كانت تتميز بالإبهام وفرض الأمر الواقع وعدم المناقشة لكنه قرأها مرات أخرى: (نحن بخير والجميع ينتظرون قدومك.. لاتبطئ بالعودة إلينا حتى نكمل إجراءات الزواج.. هي عروس جميلة وفي الثانوية... وابنة أبو عزيز... وافرح يا عم وسنوافيك بالتفاصيل لاحقاً عند قدومك) قال سعيد: (أي تفاصيل وأي أبي عزيز وهم كثر وأعرف منهم العشرات. ثم هي صغيرة ولا أعرف عنها شيئاً). تلك هي التي أرسلت البرقية دون تدبر وتفهم متسرعة كانت شقيقته التي نزلت من أمريكا لدمشق لزيارة الأهل فصادف وجودها مع شقيقتها الكبرى سعاد في بيت أخي زوجها الذي عرض ابنته للزواج من سعيد السيد شقيق سعاد فرحبت سعاد بالدعوة مجاملة ليس إلا وكأنها رتِّبَتْ تلك الدعوةُ والمناسبة لمثل هذا الغرض وما صدق والدها حتى قال: (إذاً نقرأ الفاتحة يا سعاد). وشرع ينفذ ما فعل ويؤكد ما يريد وطلب من زوجته أن تطلق الزغاريد بهذه المناسبة السعيدة فوقع سعيد بشرٍّ ما رتبهُ أبو عزيز من غير علم ولا معرفة وعن طريق أهله دون سابق إنذار

بفخ محتال في شر مصيبة لا تكون إلا لمغفل ســاذج لا يعرف من الدنيا "الخمسة من الطمسة"...وقد حــثَّ أبــو عزيز على تسريع الإجراءات وسعى لنيل مــراده فــي خطبة عاجلة كالخبطة الصحفية التي كان يسمع عنها في مسلسلات التلفزيون والسينما. إنه صاحب مــآرب وقــد وقعت الطَّامةُ الكبرى على رأس سعيد وكما يقــال: (يــا غافل إلك الله) ذهل سعيد من هذا وقد خرج من صالــــة صناديق البريد وهو يمشي نحو بيته والمسافة ما بينــهما قريبة وظل يقرأ ثانية وثالثة ورابعة مشدوهاً مندهشاً فــي غير توازن وقد رآه زميله باسم قادماً حين ألقــى عليــه التحية فلم يسمع رَدَّهُ فاستغرب باسم من تجاهلــه وظــن شيئاً أصاب العلاقة بينهما حتى اقترب منه وحرك كتفيــه منبهاً مسلماً ثانية.. استيقظ سعيد من ذهوله وصحا مــن غفلته وسرحانه ونفض يديه من هذا الأمر معتذراً لزميله عن ذلك الشرود طاوياً تلك الصفحة إلى حين وقال سعيد: (أنا جاهز يا باسم سنقضي ليلتنا عندي وغداً نغادر إلــى طرابلس بإذن الله...) أجاب باسم: (ما بال حالك لم أعهده على هذا الوضع...؟أخبرني) قــال ســعيد: (إن أهلــي

يطلبون قدومي لزيارتهم ولكن ليست لي رغبـــة بذلــك وسنتوكل على بركة الله وهذا القرار الأخير... هيا ندخل بيتنا... ثم هل أنت جاهز أيضاً...؟!) أكد باسم بإيماءتـــه بالموافقة. وهما يجلسان على مقعدين متلاصقين داخــــل الطائرة. ولا زال أمر الخطوبة يشغل بـــال ســعيد وإن حاول أن يُبدي غير ما يعلن لكن باسم لم يحاول أن يُقحم نفسه في أمور زميله الشخصية تاركاً ذلــك للظــروف عندما تحين. وقد لاحظ على زميله اســتمرار الشــرود والقلق، ولكن ما باليد حيلة. أعلن ميكروفون الطائرة عن وصولها فوق أجواء إيطاليا ولم يبق إلا القليل من الوقـت لدخول أجواء بلغاريا. تأرجحت الطائرة في الفضاء لشدة البرق والرعد وسوء الأنواء في أوروبـــا.. يـــا ألله فـــي الشمال الإفريقي الدنيا تغلي وتشـــتعل حـــرارة وفـــوق إيطاليا الدنيا تعصف وتقصف الرعد وتزمجر غاضبــــة والزمن هو شهر تموز من السنة في فصـــل الصيــف. ترجل الركاب لأرض المطار متوجـــهين إلـــى الصالـــة والمطر المنهمر بغزارة يعطل الرؤيا خلال المسافة التـــي سيقطعها الركاب نحوها... انتهت الإجـــراءات وخـــرج

الزميلان نحو أقرب فندق بالمدينة بعد أن استقلا سـيارة أجرة من أمام المطار.

البلاد جميلة والأشجار الخضراء طوال أيام السنة تبهج النفس وتريح النظر والأمطار لا تنفك تهطل بيـن الفينة والفينة وهذا ما يسـاعد علـى جمـال الطبيعيـة واخضرار الأشجار واستمرار البساط السندسي في كـل الشوارع والحدائق مهما امتد.

قضى الزميلان في أوربا يتجـولان بيـن دولـها الشرقية قرابة شهرٍ يعبران دولها من دولة إلـى أخـرى وكانت محطتهما الأولى صوفيا في بلغاريا ثم انتقلا إلـى هنغاريا وبولونيا وعادا إلى بلغاريا فيوغسلافيا لتكون هذه المرحلة الأخيرة عند العودة إلى أعمالهما فـي الشـمال الأفريقي. بلغت سعادة الزميلين ذروتها خاصة في بلغاريا فهي محطُ أنظار الشعوب المحيطة بها، وهي تقع علـى البحر الأسود وفيها مدن جميلة وسـياحية للاصطياف وتستقبل أعداداً تفوق الخيال مـن الـزوار والسـائحين خاصة في مدينتها (زلاطنة) التي يرتحل منها السـائحون

نحو الجبال المرتفعة والغابات التي رتبتها يـد الإنسـان بغاية الفن والإتقان حيث شاطئ الرمال الذهبـي الـذي يستقطب أنظار المصطافين والسائحين عندها قال باسـم (لا بد لنا الآن من العودة وقد حان الوقت يا زميلي فمـا رأيك؟) انتظر سعيد السيد برهة ثم أجاب (لا أخفيك أنني في غاية السعادة وليست لدي الرغبة في الذهاب لكن وقد حان الوقت والميعادُ فلا أقل من الاستعداد حتى نرجـع) قال باسم: (ستكون عودتنا كما بدأنا بالقطـارات عـبر الدول التي قطعناها فهي متعة للزائر كأنها رقعة خضراء تتصل مع بعضها دون انقطاع اللهم إلاّ الأنهر العظيمـة التي تخترقها كالدانوب) قال سعيد (إذن توكلنا علـى الله ومن يوم غدٍ تبدأ رحلة العودة يا باسم) .

وصلا طرابلس الغرب وافترقا على أمـل اللقـاء عندها استقل باسم الحافلة الكبيرة وركب سعيد الطـائرة الداخلية.. قضي الأمر ووصل سعيد باب بيتـه وأضـاء المصابيح ودقائق ثم قُرِعَ الباب وكان ذلك هو جاره خالد الكنعاني.. فتح سعيد الباب فوجده قبالته فقال له: (أهلاً يا

جار تفضل.. تفضل..) واستزاد في الترحيب، كـــان رد خالدٍ: (أشكرك لكن هناك أمرٌ لا بد من اطلاعك عليـــه)، قال سعيد: (ما هو يا جار)، أجابه: (زوجتك فـــي بيتـــي بصحبة عمها وزوجته أردت إخبارك حتى تستعد وهـــم بزيارتي منذ أسبوعين وقد كثرت التســـاؤلات ولكننـــي خمنت أنك على سفرٍ بقضاء إجازتك خارجـــاً ولكـــن لا أعلم أين..).

صدم سعيد.. فما الذي يحصل في هذا الزمـــان.. تلعثم ولم يستطع الإجابة فهو لم يتزوج أصـــلاً، تذكـــر عندها تلك البرقية التي جاءته قبل المغادرة وصعق أكـثر ثم قال: (إذاً هي عندكم منذ فترة.. أسف لـــهذا التـــأخير سأوافيك بعد قليل وأشكر لك لطفك عما صنعت وعلـــى حسن استضافتك لزوجتي العزيزة وأهلها الكـــرام!؟ يـــا خالد). ذهب خالد وتبعه سعيد بعد أن أصلح من قيافتـــه وشأنه وسرّحَ شعره وتناول زجاجة العطرِ من حقيبتـــه ينثر منها على وجهه وثيابه ما يليق بهذا المقام المحرج.

ثم خطا خطوتين وتوقف وأعاد الكرة ثانية وثالثـــة

ورابعة وراودته أفكار الشياطين أن يخلع مبتعداً من هـذا المكانِ وينسحب بعيداً عند أحد الأصدقاءِ أو الفنادق ولكن المسافة ليست بعيدة عن الشقتين فهي في تلـك العمـارة المقابلة ثم قال: (واحدة بواحدة إن جاءت هي أذهب أنا)، ودخل في تلك الدوامة واجتاحته الصراعات حتى سـمع من شرفة شقة جاره خالد صوتاً يناديه.. : (أسرع يا سيد سعيد فالأسرة بانتظارك)، عندها دخل سعيد المصيدة ولا بد من أن يتعرف على زوجته وأهلها قبل زواجه بـها.. فتح خالد الباب مسـتقبلاً جـاره العريـس بالترحـابِ والعروس في الصدارة داخل الصالون.. ابتسمت وتـابع سعيد دخوله مسلماً على الحضور واحداً بعد الآخر.

قضى العروسان تلك الليلة في حوار عقيـم وقـد أفرغت جعبتها بالكامل حين قالت: (أُكْرِهْتُ على المجيء والزواج بك والسفر إليك)، قال: (ما الذي أكرهـك يـا حلوتي؟)، قالت له: (سطوة الأب وعناد الأم وارتبـاطي بغيرك وظروفي الصحية النسائية..) ثم عقبت..: (افعـل ما تراه مناسباً)، أقنعته بحديثـها وأقنعـها بجهلـه بـها

واستغرابه من تلك المصادفات الغريبة في هذا الزمـــان الأغرب وقال: (كنا نسمع عن الزواج بالإكراه قديماً جداً أما اليوم فها نحن نعشيه واقعاً مجســـداً فـــي شـــخصك الكريم. لكن حدثيني لِمَ والدك رتَّبَ لهذا الزواج ووضعني وإياك في هذا المأزق؟).

قاطعته: (أبي كان في ضائقة مالية وشقيقتك وعمي في غنى فاحش ووالدي يطمع بالثروة والمال وأنـــا فـــي أزمة غريبة أحتاج لإجراء عملية تنظيماً للعادة الشـــهرية وكل هذه الأمور مجتمعة وزيادة فهو يقدم عروســـاً لـــك متفضلاً متكرماً عليك وعلى أهلك وهذا هو الواقع). قـــال سعيد: (ما الذي أسمع)، قالت عروسه الـــذي لا يعـــرف اسمها حتى الآن: (إنها الحقيقة)، فأجابها سعيد: (إذاً هـــو الزواج بالإكراه والتفضل أيضاً)، قالت العروس: (وَحَـــلُّ المشاكل... فلا تغضب وإن شئتَ أعودُ، لكن توقع نهايتي عند رحيلي..والأمر بين يديك ــ وتـــابعت ــ واســـمي نهاية) قال سعيد: (وتلك هي أيضاً نهايتي يا نهاية..).

# مُصَادَفَةٌ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ

امتطى إحدى الحافلات الصغيرة التي تمر كل دقيقة تقريباً من أمام موقف غير مُعَدٍ للوقوفِ من ظاهرِ دمشقَ ومن إحدى ضواحيها الغربية القريبة جداً إليها قاصداً قلب المدينة التي تعج بالحيوية والحركةِ والنشاط... فتفاجأ بسيّدةٍ قبالته تتوسط إحدى المقاعدِ الأمامية حيث لا يوجد غيرها في الحافلة فجلس قبالتها وهكذا كان يجلس دائماً قريباً من السائق لكي يدفع له من دون أن يُكلِّفَ غيره بدفع الأجرة عنه وتلك عادة كان لا يستسيغها من كثير من الموجودين في أي حافلةٍ يكون فيها حيث يجلسُ الصغيرُ في الخلف دافعاً للمُسِّنّ المتقدم في العمر بكل فظاظةٍ ورقةَ الخمسمائة ليرةٍ ليعطيها للسائق مترفعاً عن أن يفعل ذلك بنفسه... جاعلاً لشخصه عظمةً وأُبَّهَةً فارغين وشكلاً وضيعاً من أشكال التباهي والتنطع المقيت المزري في حافلةٍ يمكن لأي راكب كان أن يحتاط قبل الصعود إليها بتهيئة المبلغ الزهيد في يده سلفاً ليضعه بعد

ذلك في يد السائق حال امتطاء السيارة.. وهذه كانت عادة خالدٍ في كل رحلةٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ من دمشق لظاهرها أو من ضواحيها إليها أو في داخلها ... وهكذا جلس خالد في مقعده وأخرج ورقة الخمس ليرات من محفظته التي كانت في يده ليدفعها للسائق، إذ ذاك ناولته تلك السيدة التي قبالتهُ ما بيدها لينقدها للسائق كذلك بدوره، ففعل... ولكنه كمن يحدث نفسه في سره إذ قال: (أنا لا أُنكرُ أنني استأنست بوجودها وشعرت برهبة تعتريني وهيبةٍ تتملكني وخفقةٍ في قلبي غريبةٍ جداً تتسارع متواثبةً في صدري فماذا أَلَمَّ بي...؟! وما الذي أرهبني؟!.. وكيف طواني ذلك الشعورُ؟! في غفلةٍ مني). رُغمَ أن شريط تسجيل جهاز مذياع سيارة السائق يتعالى متواصلاً بالهدير مغالياً في النفير زاعقاً من غير احترامٍ للحضورِ يضج كجوقةٍ تزعق في مأتمٍ أو فرقةٍ غجريةٍ تنفخ في مزامير الشيطان... إنها جلبة وكأنها حَلَبَةٌ للسِّباقِ من كل سيارةٍ يعتليها سائقٌ ليظهر ما لديه من قدرةٍ على اختيار تلك الأغاني الهابطةِ المسِّفةِ في السَّذاجة الرخيصة الكلمات عجيبة اللحن الصاخب العاصفةِ بالذَّوْقِ، غير الآبهة

باحترام الحضور وانسجام الجمهور وقد تداعت أفكـــاره، واستمرَّ يحدث نفسه: لا شـــك أنـــها فرصـــة للمنافســة والصراع... حقاً إنه صراعٌ آخذٌ بمنـــاحي عديــدة فـــهو وحشٌ مفترسٌ آكل عقول أولئك المتبـــاهين فـــي مجـــال التنافس في طريق ضاق أحياناً أو كاد لا يتســـع ســـوى لسيارة للمرور فيه إذا ما تجاوز سائق آخر هذا الدرب أو ثالث أحياناً متبختراً بركابه مسرعاً لا يرعـــوي... هـــذا والغرور والتباهي يتجاوزان حـــدَّ الاســتهتار بـــأرواح المتأرجحين فوق جنون السرعة والمســتهترين بـــالأنفس والأرواحِ والطريقُ يتلوى متعرجاً فـــي مســاره أحســبه خمسين ثعباناً اتصلوا معاً في توافقات منسجمة في شـــكل التعاريج والمنحنيات وفي هذا الدَّربِ الملتوي باستمرارية متعاقبة لا تفسح للماشي حرية الخطى ودوام الاســـتقرارِ بالمسير فيندفع كل سائق سيارةٍ بركابه هـــادراً بوحشـــية مسعورٍ أقصى ما يستطيع فيما لا يفســـح مجـــالاً لذلـــك فيتأرجح الركاب يمنةً ويسرةً بتناغم وتناسق مع تـــأرجح كل سيارةٍ في زحمة الانطلاق بصعوبة المرور والخطـــرُ يدهمُ الجميع ولا يكاد يستقر راكبٌ مكانه حتـــى يـــنزلق

نحوهُ جَارهُ وتبدأ الكرة عكس ما كان ما بين الجميع ولكن الأنكى من ذلك أن السائق لا يترك فرصة فيها مجالٌ لكبح جماح سيارته إلا ويفعلها حيال كل خطر داهم فينقذف من في الخلف باندفاعٍ عن غير قصد نحو المتقدمين في شر ارتطامٍ وأذكر أنني ما ركبت مرةً سيارة من تلك الحافلات إلا وشعرت أن معدتي ستتقذف من جوفِي أو سينخلع ظهري وصدري لكثرة ما أعاني وجميعِ الركابِ المساكين في هذا المأتم الجنائزي من هؤلاء وأولئك أمثال الشباب الصغار من السائقين حتى نترجل ثم نصعدُ أخرى وتبدأ الحكاية ثانيةً وثالثةً كل يومٍ... فالصراع في هذا المجال والمضمار بلغ أشده والمنافسة لا تتهاود في أي منها زد على ذلك أشرطة الكاسيت التي أصبحت تُجذِّرُ فينا العنف والسطحيةَ والصَّخَبَ والضوضاء وعدم الانسجام والسباقُ يحكمنا من ناحية أخرى لشروطه المفرطة في الاستهتار بالأرواح والحيواتِ والأشخاص.

ولعل الخطورة تبلغ مداها الأبعد عند السائق وقتما لا يجد ما يعيده للبعض من دَرَاهِمَ يدفعها لمن نقدوه أوراقاً مالية كبيرة إذ يضطر لعرضها على زميل آخر من

مهنته علَّةُ يجد لديه ما يخرجه من محنته التي وقع فيـــها فيتجاذبان أطراف الحديثِ والحـــافلاتُ فـــي صراعــها متجاوزة كذلك كل الأعراف القيادية والأخلاق المرعيـــة في أساليب السياقةِ والقيادة.

هكذا نحن كل يوم بل كل ساعة أو بعض الســـاعة في صراعٍ مع الموت والحياةِ وكثيراً ما تعالى من البعض صوتٌ أو دعاءُ أو نداءٌ... على مهلك يا أخـــي أو... يـــا ساتر... يا الله... رفقاً بالقوارير.... يا أخي طول بالك... ارحمنا من هذا الضجيج والجنون.. خفف السرعة... على إيش العجلة؟.

وهذا الذي يمكن أن يقال ربما يكون نادراً إذا نـــدَّ عن البعض في لحظة خوفٍ فالسائقُ يحسب نفسه أمينـــاً على الأرواح والأنفس ويجوز له أن يحشر رُكَّابـــه فـــي (خانة الْيَكّ كما يقولون) أو أن يُلقمهم لسعير الجنون أو أن يصرعهم في حادثٍ أليم... أليس هو السائق المتصـــرفُ بأمور الأرواح والراعي الأمين؟ أليس من حقه أن يُخرسَ الألسن؟. ويكم الأفواه وكثيراً ما سخر من بعض الركــابِ

إذا تفوه أحدهم بتنبيه أو تلميح أو تذكير. فيجيبهم (أنت ما دخلك... تَع سوق مكاني يا فهيم...) أو (شو فهمك بالقيادة يا حضرة) وربما أوقف الحافلة غاضباً نكاية بمن تكلم وكأنه يقول (أنا ربكم الأعلى) فيتدخل البعض لمعاودة قيادته مستلطفاً إياه مجاملاً فينتفخ ذلك السائق مستعلياً متباهياً مغروراً هائماً بأوهامِ العنجهيةِ مفتوناً بجنونه الأرعن وقيادته الهمجية مما يتيح له بعد ذلك من صمت الحضور... الاستزادة في الغرور وهكذا يتحكم هذا المعتوه بالأرواح والأذواق والحريات صلفاً قميئاً بما يفعله ويتصرف به... حين أسرف وغالى... وعلام نبقى صامتين في نفق السائقِ المظلم... المليء بالرعب والخوف وامتهان الإحساس والأجناس والناس...؟).

قال خالد ذلك فسمعته السيدة التي قبالته وهو يتمتم بصوت خفيض مما عاناه وجميع الركاب في الحافلة آنذاك.

فردَّتْ عليه بصوتها الرخيْمِ المفاجئ وبلهجةِ السيدةِ المترفة المثقفة... (طب نفساً.. وهون عليك حقاً كلنا

نعاني من هذا الذي تقوله وتلمسه وتلحظه واقعاً ملموساً وتصرفاً ممجوجاً...) وقد مدت يدها لتغلق النافذة فأسرع خالد وقام بالمهمة فتلامست الأيدي والتقَتْ النظرات للحظات حَرِجَةٍ أَزَّمَتْ المشاعر وَحفَّزَتْ الأحاسيسَ وكأنها تحدثه عن أشياء هي في حسابه طُوِيَتْ منذ زمنٍ بعيد ورغم أنه يكبرها بالسن ويعيش لظروفه الحياتية والتزاماته ومسؤولياته وارتباطه بعمله بالخارج إلا أنها لاحقته بسؤالها... (هل تعمل...)، أجابها: (نعم) واكتفى بذلك منهياً الحديث فلاحقته بسؤال آخر: (وما نوع العمل يا ترى...) تململ لحظةً ثم اضطر للإجابة: (أنا مدرس...) ثم قالت: (وفي أي مدرسةٍ هنا؟) قال متابعاً: (أنا لا أدرس هنا الآن أنا أعيش الاغتراب وما هي إلا إجازة أقضيها في أرض الوطن حتى يحين موعد العودة والسفر إن شاء الله).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد عندما صارحته بتذمرها وقلقها من تلك التصرفات التي لاحظتها وشق عليها أن تعيش هذه الإرهاصات الاجتماعية كل يوم مثله من تلك الأنغام التي تصدع الرأسَ في كل سيارة وحافلة

وتلك السرعة الجنونية وذلك العبث الصبياني وتلك التصرفات التي يعانيها كل راكب من البعض أثناء سير الحافلة... وهنا عقب منوهاً عن الأَذْهى في كل ما يثير الحفيظة حول التلوث البيئي الذي يجتاحُ السعادة ويتلف الصحة وقد نفثت الحافلة التي تتقدمهم بهبائها الأسود ودخانها القاتل فكانت الصدمة... وامتلأت السيارة بما نفثته من دخان تلك السيارةِ الأخرى ورغم ذلك علَتْ الابتسامة على بعض الشفاه إذ قالت السيدة: (شَرُّ المصيبة ما يضحكْ؟!) وهنا سألها عن اسمها فأجابته أن اسمها رانيا قال لها: (جميل هذا الاسم ويسعدني أنني التقيت بك يا سيدتي في هذه الدقائق اللطيفة).

عقبت رانيا على ما قال بصوت الأنثى الجذابة الهادئة المتزنة وقد نفذت كلماتها لأحشائه قبل مسامعه: (وهل من لقاء يا خالد؟!).

بادءها بجوابه حين أسعفته الكلمات التي أحب أن يذكرها فقال: (لا بأس في ذلك يا سيدتي... ولكن هل سيتسنى ليٍ أن أفعل مثل هذا رغم كل الظروف وقد جلّلنا هذا الدُّخانُ الضبابي مكتسحاً كل مكان... فالجو قاتم ملّوثٌ ممتدٌّ في كل اتجاه...

ألا ترى معي صدق ما أقول؟!. آمـــل أن تتحقـــق أمانينا مستقبلاً بعد أن تتقشع الرؤيا الضبابية في جو تشبَّع بدخانِ عوادمِ السياراتِ فإلى ذلك اليوم آمل اللقاء وأظـــن أننا سننتظر حتى ذلك الحين لقاءنا يا عزيزتي).

# المحطة الأخيرة

اختلطت الأوراق ولم يعد بالإمكان الفصـــل فيمـــا بينها وقد وصل القطار المحطة الأخيرة في رحلته معلنـــاً بصفارته الجريئة جداً التي تدوي وتوقظ النيام من غفلتهم والشاردين مـــن شـــرودهم وهروبـــهم أن الوقـــت قـــد حان..فماذا بعد؟! وعلى الجميع الترجل ليبدأ رحلة جديدة مع ركابٍ سيصعدون إليه قافلاً نحو العودة إلى محطتـــه الأولى معيداً كل مراحله واحدة واحدة في نظـــام دقيـــق ثابتٍ لا يتغير ولا يتبدل وتلك هي سنة الحياة عندما تغلق أبوابها لتبتلع في جوفها من رحـــل وتـــهلل لمـــن جـــاء أيقظه الحنين لأمه وقد ماتت منذ عشرين سنة.. صحا في منتصف الليل وهو يحسب نفسه في السادسة صباحـــاً.. أيقظه صوتها الآتي من بعيد وكأنها خيالاتٌ تلوح أمـــام وجهه أو صورةٌ غير واضحة المعالم تتجسد في أحلامـــه وها هي تزوره لأكثر من ليلةٍ تشير إليه بشيء وتتبهـــه إلى أمرٍ لكن رافع لا يعي من ذلك مغزىً ولم يفطـــن أو

حتى يدرك فحوى الأمر الذي لابد لـــه أن يصـــل إلـــى معرفته مستوضحاً بأسئلة يطرحها على نفسه: (يا تـــرى ماذا تريد أمي من ظهورها في أحلامـــــي هـــذه الأيـــام خاصة؟.. وأي شيء ذاك الذي نتبه إليه؟.. وقـــد مـــرت سنواتٌ حتى الآن وأنا غارق في قعر الهموم والمشـــاكل والتنقل هنا وهناك وكثرة الأسفار فـــي قـــارات العـــالم مجتازاً المحيطات والبحار واليابسة... لكنها لم تزرنـــــي ونادراً ما استقبلت طيفها أو لاح لخاطري فـــي زحمـــة الحياة المعقدة التي تأخذنا بعيداً ضمن مشاكلها وهمومـــها ولا تترك فرصة حتى لمجرد التفكير بأقل الأمور أهميـــة أحياناً كالعلاقات الاجتماعية وترتيب الأوراق أو لزيـــارة صديق عزيز...) فنادراً ما لمح رافع زملاءه وأصدقـــاءه في طريق إلا وسلم ثم ودع مستأذناً بـــــالانصراف لمـــا يشغله من مسؤولياتٍ وتبعاتٍ لا يستطيع معها الانســحاب منها حتى يترك لنفسه فرصة في نزهةٍ أو حديـــثٍ مـــع صديق أو حتى الاهتمام بنفسه وثيابه فالحيـــاة أصبحـــت معقدة لِحدِّ الجنون، قاسيةً لحدِّ المـــوت، مُرْعِبَـــة لحـــد الهول، عاصفة لحدِّ الفوضى، وكلٌ يتزاحم فـــي عـــراك

وصراع متلازمين ولا تكون الغلبة لأحد من الأطـــراف إلا للقهر والموت فَهُمَا وحدهما المســيطران فــي هــذا الزّحام دائماً وجميع الفرقاء إلى الجحيم... وكـــأن أمـــه تنبهه وتحذره إلى ما يتصور كانت نظرة رافع ســوداوية بعض الشيء وذلك مَرَدُّهُ لفقد أمه بعد أبيه بسنةٍ ونصــفٍ عاش معها في إطار أسرة كبيرة من الأخوة والأخــوات وهو المدلَّلُ بين الجميع صاحب الحظوة في كل الأحــوال وكم آلمه فقد أبيه أبي محمود بعد مرض أنهك قـــواه إذ استمر عدة سنوات يغالب فيها الآلام ويعاني وطأتها ليـل نهار فما أشدَّها على العائلة جميعاً لأن كل واحــد كــان يتحمل عبئاً وجزءاً من تلك المسؤولية حتى غادر الحيــاة وفارقها بالكثير من الصبر فهذا وعــد الله: (إن الله مــع الصابرين إذا صبروا) صدق الله العظيم، ولم يكــن أبــا محمود ليتذمر أو يشتكي وهو المؤمــن التقــي الــورع الصابر المكابر على آلامه وهمومه إلاّ أن يقول: (الحمــد الله وبشر الصابرين)، لقد عانى الأمرين لقلة ذات اليـــد وضيق الحال ثم المرض الذي ذهب بنور عينيه أولاً وقد تفاقم حتى اعتَلَّ جسمه وساءت حالـــه فتوفــاه الله فــي

صبيحة يوم كريم من شهر رمضان.

ترك هذا المصابُ الجللُ في نفس رافع أثراً عميقـاً من الحزن ظل يعاني منه طوال حياته وكيـف لا وهـو الابن القريب لوالده وقد تزوج معظم أخوته وأخواته وكان لصيقاً به قريباً من أحاديثه الشـيقة ونصائحـه الهامـة وحكمته في الحياة والصبر عليها فهي التجـارب التـي تغرس في النفس آثارها بأصابع الزمن والتي لا تُمحـى أبداً... توفي أبو محمود ولا زال رافع يتذكر والده بكـل تفاصيل حياته وهو طالب فـي كليـة الحقـوق بالسـنة الثالثة..حتى اختطف الموت والدته الأثـيرة إلـى نفسـه الغالية عليه الحنون المعطاء الكريمة العطوف.

وفيها صدره الحنون الذي يضمه عندما يضيق بـه المكان فهي الملجأ والملاذ الآمنين في كـل الأحـوال... أحبها رافع حباً غريباً وازداد هـذا الحـب بعـد والـده المرحوم فكانت أمه بما بقي لديها هي التي تعوضه هـذا الحب الأبوي إضافة إلى حـب الأم وشـوقها وتعلقـها وحنانها عليه فهو في نظرها شعلة الضوء والحياة التـي

تراها بعد فقد زوجها الغالي شريك حياتها ورفيق دربــــها فما كان لهذا الأثر الأكبر في معاناتها القاســـــية بحرقـــة المفجوع بعزيز عليها وهي (عشرة عمر) ورحلة حيـــــاة عاشاها معاً لتنسيها زوجــــــها وأيامـــه الحلـــوة الهنيئـــة مطلقاً..تـــثاقلت الأيام بطيئة على رافع بعد أن شـــعر أن أمه تزداد حالتها سوءاً وقد اصطحبها للعديد من الأطبـــاء متنقلاً بين كثير من المخابر الطبية التحليلية والمستشفيات ولكنها لا تشكو من شيء اللهم تلك المسحة مـــن الحـــزن التي تظلل وجهها وتطل من عينيها وذلك الشيء الخفـــي الذي ينساب بحديثها عندما تتكلم. عانى مـــن كـــل ذلـــك الأسى الخفي مؤملاً شفاءها لكنه أحسَّ في قرارة نفســـــه بشيء لا يوصف من الرهبة والخـــوف الكبـــيرين وهـــو يتصور شبح الموت بقدومه نحو أمه لا ســـمح الله عمـــا قريب..فما الذي سيحل به ومــــاذا ســـيكون مـــن أمـــره وحاله... إنها نهاية العالم بالنسبة إليه... فما أشدها مرارة وأصعبها رحلة وأقساها حزناً، ثم بدأت الأســـئلة الثانيـــة تراوده ثانية (وهل سترحل أمي هي الأخـــرى؟!... وقـــد أصبحت وحيداً بين جدران هذا البيت لا غير الوحدة فيــه

والصدى الذي سيكون رفيقي في آلامي بعد اليوم فالجميع رحلوا.... فمنهم المتزوج والمسافر والمغادر والراحل.... وأنا... ماذا أفعل... ثم ماذا بعد...) استتكر رافع بأسئلته تلك كل مَا مَرَّ بخياله في هذه اللحظات وتواردت أسئلة أخرى غيرها تزحم رأسه فماذا يفعل وقد شعر بدنوٍّ الكارثة وهول المصيبة حتى أن توفيت أمه في آخر ليل الجمعة قبل طلوع فجر السبت في الثاني من أيلول مودعة الجميع كَرِحْلَةِ كل من سبقوها... لكن همها الوحيد قبل ذلك وهي بين ظهراني هذه الدنيا هو ابنها الذي ما تخلَّتْ عنه لحظة وقد شفَّ حبها له وآلمها أن تراه شارداً يائساً يتجرع من مرارة حسرة والده ما سيزيده أسىً مضاعفاً إن غادرته مودعة بعد أن يحين الفراق وليس من عناقٍ لهذا المشهد إن أذنت ساعته وقد حانت تلك اللحظات وحال بينهما الموت وأصبح كل في طريق ما بين الدنيا والآخرة...

تقدم رافع بطلبات كثيرة للتعاقد مع إحدى الدول العربية للعمل فيها عله يتجاوز محنته ويتخطى همومه ولا شك أن الإجراءات تأخذ وقتاً طويلاً ريثما يجد نتيجة

أو موافقة أو خطاباً أو إشعاراً من جهة في تلــــك الأيــام فقطع بأمره وتوجه إلى شعبة تجنيده ليلتحق بالجيش ملبيـاً خدمة العلم مرجئاً إكمال مواصلة دراسته الجامعية إلى ما بعد انقضاء فترة الخدمة الإلزامية فلم يجد من تلك الجهــة إلا أن أجابته بعدم توفر دورات حالياً لأمثاله ليلتحق بـــها وقد وضع نفسه تحت الخدمة... فلم يجد طريقاً لهذا فصدم أكثر وتعقدت أموره الحياتية بسرعة مما دفع زوج أختـــه الكبرى عدنان أن يطلب منه القدوم إليه ليصطحبه معـــه كل يوم في سفراته الداخلية للمحافظات والأريـــاف فـــي سيارته لطبيعة عمله حتى يخفف عنــــه مشــقة التفكــير وشرود الذهن فيمـــن تولاهـــم الله برحمتـــه واختــارهم لجواره... فاستجاب رافع لعدنان زوج شقيقته بعد رفــضٍ وأخذ ورد وكانت قد عافت نفسه الطعام والحياة وزهد في كل شيء مما أضعف صحته وهزل جسمه وتغير حالـــــه وامتقع وجهه حتى بدأ يسترد عافيته بجولاتــــه الجديــدة اليومية ناسياً أو متناسياً قليلاً أحزانه إلى أن جاءته رسالة من إحدى البعثات للتعاقد معها ففعل مستغلاً هذا الظــرف علـه يخرجه من عزلته ويضعه على الضفة الأخرى مـــن

النهر بعد عراك وصراع في موجه المتلاطم من الـــهموم والأحداث والآلام.... توجه للعمل إلـــى شـــمال إفريقيـــة مدرساً وقد سعى لنقل أوراقه الجامعية ليكمل دراسته فـــي جامعة الإسكندرية للحصول على إجازة شـــهادة القـــانون (الحقوق) فيما بعد، ومضت أيام قليلة استطاع أن ينجـــز خلالها كل ما توجب عليه عمله إلى وضع رجله على سلم الطائرة متوكلاً على الله وقد حدث نفسه مـــــراراً...(الآن وقد أصبحت وحيداً بعد فقد الأبوين فما الفـــرق بيـــن أن أبقى أعاني الوحدة في منـــزلي وبين أن أكون وحيداً فـــي عالم آخر بقصد العمل ولا شك أن الأمر سيان والوِحْـــدَةُ في الحالتين واردة وهي الوحدة لا تغيير لكنني سأكســـب المال وأجد المعارف وأشاهد العـــالم وأتناســـى وحشـــتي وأحزاني وربما أنظر إلى الأمور من زاوية غير زاويـــة اليأس فَلِمَ لا يكون الزواج والاستقرار؟) عندها عقد العزم ويَمَّمَ شطره آملاً الخير والسلامة والتوفيق فيما عزم عليه إلى أن وصل إلى مقعده في الطائرة وجلـــس مســـترخياً ينظر إلى عالمه الحبيب ومدينته دمشـــق الفيحـــاء التـــي عشقها وأحبها مثل أمه وأبيه... من نافذة الطائرة وهـــي

تقلع مرتفعة في الجو. عندها حدث نفسهُ، وقد حان وقت الفراق فقد ودع الجميع وبدأت رحلته مع المجهول نحو الأبعد مستعرضاً شريط أيامه منهياً شوطاً من حياته ليبدأ شوطاً آخر منذ الساعة... ذرف من عينيه قطرات من الدمع سَحَّتْ على خَدَيْهِ بِصِمتٍ وهو لا يدري هل فراق للأحزان وبداية لرؤيا ربما تكون سعيدة.. أم أنها استمرار متواصل سينقله بعبئه في هذا المجهول الذي يرتحل إليه دون نكوص بعد أن حزم أمره وجزم فيما يفعل.

وبدا الصراع يتخطفه والهواجس تنتابه حتى حطت الطائرة على أرض المطار حين شاهد بعد هبوطه منها مع الركاب الجو المكفهر والغبار المتصاعد والأتربة التي تجلل كل مكان وعدم الرؤيا والوضوح. تعثر في مشيته متثاقلاً فقد بدت له الظروف الجديدة بوجهها المرعب منذ البداية على غير ما توقع... أين جمال المكان؟ وطراوة الهواء ورائحة الياسمين وهو يجلل كل جدران أحياء دمشق وأين المتسلقات التي تشبث بالعماراتِ مرتفعة حتى آخر طابق منها وأين الحركة الدؤوب التي لا تنتهي وأين المدينة الصاخبة بجيوشها وزخمها وأهله؟ ثم أحبائه. بدأ

رافع يشعر بالوحدة الجديدة والتغيير لكنه شد من عزيمة نفسه وثبت أقدامه مواسياً نفسه مطمئناً روحه المنبهارة بالأفضل... وقال: (ما هي إلا زوبعة عابرة ستنتهي عما قريب) إلى أن وصل لقاعة اصطحاب الحقائب فتناول أمتعته وصعد إلى الحافلة الكبيرة التي تتسع لأعداد فوق المائة جلوساً ووقوفاً، ولم يجد فيها غير التراب يُعَفِّرُ كل أرجائها محتلاً كل أمكنة الركاب الذين سيصعدون.. هكذا بدت حال الأمور الأولى له منذ لحظات الفراق وها هي تسير على مهلٍ متثاقلة تخترق ما سَيَجِدُ من حياته بلا تفاؤل... لكن الرحلة بدأت والعودة غير ممكنة حالياً وعليه أن يوطِّن العزيمةِ ويتحمل المجهول ويستعد لمجريات الأحداث كما تكون فقد عركها وخبر منها مصاعبها فلا أقل من أن يتجمل بالصبر ويتحلى بالإرادة... إنها الحياة والإنسان هو الوحيد الذي عليه الصمود فيها لأن الله قد أودع في بني البشر كل المقومات التي تجعلهم أهلاً لها ولولا ذلك لما تمييز الإنسان عن السَائِمَةِ بالعقل والحكمة وحسن التدبير والتخطيط وتعمير الدنيا بكل نافع مفيد. كانت هذه الموازنات تجول في خلد

رافع وتفكيره حتى استقر على رأي مفاده هو أن الإنسان وهو القوى من بين كل المخلوقات الكونية مهما كبرت وعظمت فهو الأقوى بفعله وحسن تدبيره وقد ذللها له الله جميعاً من حيوان وزرع ورياح وجماد واستطاع الإنسان أن يخضعها لإرادته.ويستفيد منها لبقائه واستمرارية حياته فيما بعد...

إنها الصراعات تجتاحُ النفس في كل المجالات والخطوات والأمور حتى نزل بفندق بالمدينة واستقل بغرفة وذلك الفندق يعتبر فخماً فاستطلع غرفته وتأملها وقال:(هذه الغرفة لا تنفع إلا لتربية الدواجن أو لقطيع من الماعز والأغنام تم عقب.. لكنها مفارقات قلما يجود الزمان بمثلها على غيره). وفي الصباح عرج على الجهات المسؤولة في التعليم وتبلغ باستلام عمله وتابع رحلته في اليوم التالي متأبطاً خطابه وحقائبه حتى وطئت قدماه أرض القرية التي توجه إليها وحَطَّ رحاله فيها والتي يسمونها (بَطَّة) وهي من أعمال سيدي سعيد التابعة لمنطقة المرج في الجبل الأخضر... كان ذلك يوم الجمعة وفي هذا اليوم يتقاطر كل مَنْ في القرى القريبة

والمجاورة إلى بطة لوجود بعض مواد التموين من خبز وغذاء ولحم ومعلبات وسجائر وتعتبر مركزاً صغيراً لكل القرى التي تحيط بها وهي محط أولئك المدرسين في هذا اليوم تَبَضُّعَاً ومنامة. ورافع مثل الجميع نزل ضيفاً على من سبقه من الزملاء المتعاقدين إليها وكان سكناً متواضعاً جداً وهو من الصفيح يتلاعب فيه الريح وفي أرجائه ويعزف المطر فوق سطحه وتخترق أصوات ثغاء الماعز والطيور والبقر جدرانه الطرية الموجودة في زريبة بعيدة عن السكن جداً والمتجاوبة مع نفحات الريح الشجية في معزوفات لا تنتهي كالأفلام السينمائية وفي العروض المتواصلة.. والبرد والصقيع الصباحيان في هذا الوقت من الشتاء من شهر كانون الأول كانا يدقان العظام وينخرانها والأيدي ترتجف والجسم يرتعش لقلة الدفء إلا على حطب رطبٍ قد عسعس بدخانه والمترمد في كانونه ضعيف الاشتعال سيئ التدفئة مما حال بين مجموع الأفراد من المدرسين وتنفسهم نافثاً فيهم سمومه مصدعاً رؤوسهم والسعال المتقطع بنوبات متلاحقة على مراحل في صدر كل فرد في المجموعة كأنها تناوبات

لعسس القرية ودوريات للعمال تتعاقب في كل منهم بعـــد الآخر. لكن رغم قساوة الجو وبساطة المكـــان فالنكتـــةُ والفكاهة تعلوانِ على كل تلك الكآبة ويتجمهر الحشد فـــي دائرة متحلقاً حول الموقد وقد بدأ التعارف لتبديد الجفـــاء وتقريب الفجوة (فهم من كل قطر أغنية). تقاطروا مـــن أقطار عربية كثيرة ليتجمعوا ويجتمعوا في هذه الرقعـــة من الأرض وهذا المكان .... قال المضيـــف للجميـــع: مُقَطِّعاً صمت الجلسة هادماً جدار العزلة باعثاً الحركـــة في الحضور: (الداعي أبو سطام حسون التاجر) وبدا كل واحد يعرف عن نفسه وعن قريته التي عُيِّنَ فيها ســـواءٌ كانت بعيدةً أو قريبةً حتى كان دور رافع فقال: (أنا رافع السعيد في بطة هذه) فسأل أبو سطام حســـون التـــاجر: (وأنت يازميلنا الذي على اليمين)، فقـــال: (أنـــا ســـامر الأحمد وقريتي بالقرب من بطـــة يعنـــي "فـــي المرقـــة ابتعتها") وكان هذا الزميل مصرياً يتحلى بروح النكتـــة والدعابة فضحك الجميع حتى تبددت الكآبة وانزاح الغـــم وطُوِيَتْ سحابة ذلك اليوم في شبه انسجام ووئام، رغـــم الخوار والثغاء والريـــاح والمطـــر والـــبرد والدخـــان

والعزلة.... فَجُنَّ الليل واستلقى كل واحد على سـريره أو مفرشه في زوايا المكان بعد طول حوار ومناقشات أخذت ربع الليل على ضوء الشمع الخـــافت واحتســاء أقـــداح الشاي من إبريق لطخه الحطب المشتعل ببطءٍ في اكـــثر من جهة بسوادٍ بدا كالبقع فوق الثوب المهترئ الذي لـــم ينل حظه من الاهتمام منذ زمن بعيد وقد عفـــى عليـــه الدهر.. غفى الجميع إلا أبا سطام فقط، وكان هو الأخـير الذي ما زالت عيناه ترقب كل واحد منهم وهـــو يبتسـم محدثاً نفسه قائلاً: لقد مرت سحابة النهار وجزء من الليل ولا زال في الجعبة الكثير، ثم تبعهم ووضـــع المـــلاءة والبطانية فوق رأسه وغفى متوكلاً على الله... ومضـــى من الوقت ربع ساعة تقريباً والجميع نيام فقـــد أرهقـــت عيونهم سحابات الدخان وصدعت رؤوســـهم ولا زالـــت صدورهم في صراعها مع الســـعال تنتابـــهم بهجماتـــها المتلاحقة دون توقف وهم في غفلـــة غـــارقون. دبـت الحركة في المكان معلنة بدء الجولة الثانية من الليل قبـل انبلاج الصبح وبدء العمل فالرمـــاد يتطـــاير والأطبـــاق المستهلكة ترتطم بالجدران المعدنية والقدر يتحرك حتـــى

أصوات القطط تعلن عن بدء جولتها للمهمة القادمة. فهي تموء عبر سكون الليل بأصوات متفاوتة متغايرة ما بيـن الصغيرة والكبيرة وكذلك الأقداح تقرع بعضـــها.. بـدأ الحشد يستفيق وكل فيما يرى مشغولٌ بالنظر إليه والنـوم يغلب على الجميع وهــم أنصــاف نــائمين وأنصــاف يقظين... وكان رافع أولهم... لكنه لم يشاهد أحداً يحـرك كل تلك الأشياء ولم يرَ قططاً أو حيوانات إلا ما يتبعـثر مجتهداً في الإقلاق وعدم الراحة... عجب رافع وعجـب الجميع وكل ينظر إلى زميله مستغرباً ما هذا الذي يحدث وكيف لهذه الأمور والظواهر أن تحصل من تلقاء ذاتـها فعاجل رافع الجميع بدعابته حين قال: (لكـــأن جاذبيـة الأرض دخلت سكننا وابتعدت عن مركزها فــي جبـال تركيا المغناطيسية لتشاركنا فرحتنا بهذه المناسبة وهـــذا الليل الساحر لذلك بدت هذه الظاهرة أمامكم بفعل الجاذبية الآتية من أقصى الأرض).

قال سامر الأحمد: (لا بل إنها الخيالات التي نراها في هذا الظلام الدامس الذي لا يسمح لضوء عود الثقـاب

الذي أشعلته أمامكم من الرؤية الواضحة، وقد شبعنا مـن دخان الموقد وعَشَتْ عيوننا وتشوشت عقولنــا فصرنــا نرى الأشياء على غير ما هي حتى آذاننا صُمَّــتْ مــن ضجيج فرقعة الصفيح عبر الأصوات المتعاقبة من كل ما حولنا). قال عامر الصعيدي: (إني أخمن أن الحكاية أبعد من ذلك يا زملائي، فلا بد من وجود بعض السكان الذين يقطنون بعيداً عنا ويرغبون بممازحتنا أن يكونوا هم مـن يفعلون مثل هذه الحركات فناموا ولا تلقوا بــالاً لمثــل ذلك). لكن الضوضاء ازدادت وزاد معها تطــاير كــل شيء حتى أنهم ارتطموا ببعضهم البعض أكثر من مــرة وكلٌ يتدافع نحو الأخر فيما يثير فيهم الشــك والتحمـس للعراك إن تطور الأمر نحو الأسوأ فيما بعد. رفع أبــو سطام غطاء رأسه وأزاحه عنه بيديه بهدوء مفرط وهــو الوحيد الذي نام متأخراً وها هو ذا يصحو متأخراً أيضــاً دون الجميع قائلاً: (ألا زلتم حتى هذه الساعة "وكأنه لــم يسمع ما جرى من حديث" غير مصدقيــن لمــا يجــري وتتجاهلون الواقع ؟؟. حقاً إنكم أقــوى مــن العفــاريت واشدها جرأة وثباتاً) قال رافع: (لكأني بك عفريت منــهم

يا أبا سطام وهل تظننا ضعفاء حتى تُخَوِّفَنَا مثــل هــذه الأمور). قال عامر الصعيدي: (أظننا أقوى منها فالإنسان سيطر على كل هذه المعمورة وكثير ممــن يُخْضِعُــونَ الجن لسيطرتهم أليس سيدنا سليمان الحكيـم كـانت لــه الطاعة عليهم ؟) ولكن أبا سطام قـال مؤكـداً: (إنــها العفاريت من تعبث بحياتنا وتشاركنا هذا المكان القصــي في خلائنا المقفر فلا جــيران ولا مَحَالَّــة تجاريــة ولا بيوت.. فكيف لنا بمثل ما تقولــون؟ والطريــق موحلــة مقطوعة بالسيل ولا تسمح لأي كان من الاقــتراب مــن سكننا الهادئ الجميل هذا) ثم عقب ثانية (على كل حــال إن لم تصدقوا فانظروا من تلك النافذة المشــرعة نحــو الجنوب سترون ما يقنعكم حقاً يا إخوان) نظــر رافــع بعينيه خارجاً واستطلع الأمر وتبعه الآخرون حتى يـرى ما هو الذي يثير الدهشة ويُقَوِّضُ الراحة ويقلق البــال.. فلمح رافع خارج السكن مجموعة كبيرة من الكلاب تقف كلها كصف عسكر تطلق زعيقــها وضوضاءهــا عــبر نباحها المتعالي إلا واحداً هو الأشد شراسة والأكبر حجماً وجسماً والأغمق لوناً.... كان أسودَ فاحماً ينظر نحوهــم

بعينين محمرتين تقدحان شزاراً وكأنه يقول للجميع هـــا نحن من فعل ذلك.... فمــا بــالكم لا تنــامون؟ ازدادت الدهشة وعلا الوجوم وهدأت العاصفة وقد طلع النـــهار ورحل القطيع ودوت صافرة القطار القادم المقترب مــن آخر محطة له والتي هي في قريتــهم تلــك المشــؤومة البعيدة..... عندها قال أبو سطام: (هذه آخر محطة لـــهذه الليلة وغداً لنا لقاءٌ مع قطار العودة).

# الفهرس

## من اصدارات المؤلف

### المطبوعات:

شعر: الندامى ـــ ١٩٨٦

فينوس ـــ ١٩٩٦

الإقحوان ـــ ٢٠٠٠

الطيوف الوردية ـــ ٢٠٠٠

المسرح: أهم الغزوات ـــ ١٩٩٧

القصص: قطرات من ذاكرة الفكر ـــ ٢٠٠٠

### تحت الطبع:

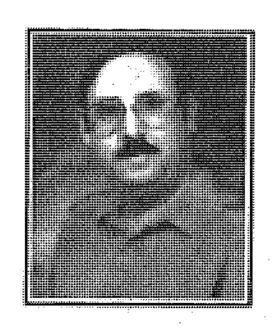
شعر: أعاصير

قطرات الندى

المسرح: ملحمة التاريخ

إضاءات

الرواية: أحلام الراحلين



لكنَّ الطفل الصغير الذي كان مستغرباً أشد الاستغراب منفعلاً أشدَّ الإنفعال ، مستهجناً ذلك العمل الذي لا يُرى والفعل الذي لم يتحقق صادقاً في أحاسيسه ومشاعره ، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض من كل هؤلاء .

فما كان منه إلا أن صاح قائلاً : أنا لا أرى شيئاً سوى حركات لرجل أو همَكُم بما يفعل .. فعلام الدهشة والانبهار ؟؟.

والعجب والابتسام والضحك ؟؟.

لاشكَّ أنكم بلهاء ؟؟ لا ترون غير الأوهام .. " وكأنَّ على رؤوسكم الطير " فأسقط في يد الحضور وشعروا بالخزي .